من نجوم الإسلام

(١٥)

الشَّيخ عزّ الدِّين القسّام

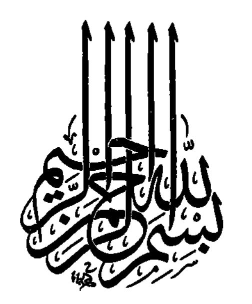
رائدُ المجاهدين في بلادِ الشَّام

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت



الشيخ عز الدين القسام

رائد المجاهدين في بلاد الشام

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

ـ سافرنا في رحلة إلى الساحل السوريّ الجميل، أمضينا فيه بضعة أيام، كانت من أجمل أيام العمر، زرنا مدينة اللاذقية، والشاطىء الأزرق، وبلدة البدروسية، وسبحنا في البحر الأبيض المتوسّط، ثم زرنا بلدة (جبلة) وصلّينا في مسجدها الكبير وسط البلد، ورأيت والدي يقف أمام المنبر والمحراب، ويتأملهما مليّاً، والتأثر ظاهر عليه، بل إنه تناول منديله النظيف، ليلتقط به دمعة طفرت من عينه، فأمسكتُ بيده وسألته:

ـ ما لك يا أبـي؟

فأجابني دون أن ينظر إليّ

ـ لا شيء، يا صادق، لا شيء.

قلت وأنا أهزّ يده بكلتا يديّ:

ـ كيف يا أبـي، وأنا أراك على غير ما كنتَ عليه قبل لحظات؟

قال وعيناه معلَّقتان بالمكان الذي يجلس فيه خطيب الجمعة:

ـ انظر إلى ذلك المكان يا صادق.

حدَّقتُ في المكان الفارغ فلم أر شيئاً، ثم طُفْتُ بعينيَّ فوق المنبر فلم أشاهد إلا الفراغ، فتركتُ يد والدي، وأسرعتُ إلى المنبر، وصعِدتُ درجاته، حتى وقفت في المكان الذي يقف فيه الخطيب، وقلت:

ـ هل تريد شيئاً من هنا يا أبـي؟

فأشار إلي: أنِ انزلْ، فنزلت، فأمسك بيدي وقال وهو يشير إلى المحراب:

ـ انظر إلى هذا المحراب يا صادق.

نظرت إلى المحراب، وأنعمتُ النظر، فلم يستوقفني شيء، وهنا تقدمتْ أختي صادقة بجلبابها الفضفاض الجميل، وخمارها الذي أضفى هالة بديعة من الحسن على وجهها الهادىء وقالت:

ـ ألم تنتبه يا صادق إلى ما يريده الوالد الصالح من هذا المنبر وهذا المحراب؟

ـ لا لم أعرف.

قالت صادقة:

ـ إنهما يذكّران أبانا الرائع بالشيخ عز الدين القسَّام رحمه الله... أليس كذلك يا أبـي؟

نظر الوالد إلى صادقة وأجاب بحنان وإعجاب:

ـ بلى يا بنتي يا صادقة... ذكّرني هذا المنبر بالشيخ الجليل، العالم التقي المجاهد عز الدين القسام رحمه الله رحمة واسعة.

صادقة: هل سمعتَه يخطب يا أبـي.

الأب: يا ليتني سمعتُه، فقد قال عنه الناس: إنه خطيب مفوَّه... بارع.

صادقة: كيف يا أبـي؟

الأب: حدَّثني جدُّكم ـ أعني أبـي الحاجّ صادقاً رحمه الله ـ عنه عندما زار بلدة جبلة قبل أكثر من نصف قرن، وحضر عنده خطبة الجمعة، في البداية، عجب والدي من ازدحام المصلين في المسجد، ولكنه عندما سمع الشيخ عزّ الدين القسّام يخطب، بَطَلَ عجبُه، لأنه عرف السبب... قال أبـي رحمه الله: كان الشيخ

عزّ الدين يحرّض المسلمين على الاستعمار الفرنسيّ الذي غزا سورية ولبنان، وعاث فيهما فساداً. . . كان يحرّضهم على قتال الفرنسيين الأنذال، وأذكر مما قاله الشيخ عزّ الدين، وحفظه والدي رحمه الله:

«أيها المسلمون. . . يا أبناء خالد والمثنَّى وأبي عبيدة والقعقاع وصلاح الدين. . . هل تعرفون شيئاً عن هؤلاء الغزاة الصليبيين الذين جاؤوا يحملون صلبانهم وأحقادهم، حتى بلغ الحقد والنذالة بقائدهم غورو أن يقتحم القبر على البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي، ويركل القبر بقدمه، ويقول: «ها قد عُدنا يا صلاح الدين» كما قال زميله الإنكليزي الجنرال اللَّنْبِي عندما دخل القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

هل تعرفون شيئاً عن هؤلاء الأوغاد؟

أما أنا، فقد سمعتُ من علماء الأزهر الشريف في مصر، أن الفرنسيين عندما احتلوا مصر، جاؤوا يحملون خمورهم وفجورهم ومومساتهم. . . وانطلقوا يفسدون في مصر، حتى دخلت خيولهم الأزهر الشريف، وقتلوا من قتلوا من علماء الأزهر، ومن طلاب الأزهر، ومن المجاورين في الأزهر، لم يفرّقوا بين كبير ولا صغير، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين شاب وعجوز، ثم ربطوا خيولهم في صحن الأزهر، ودنّسوا الأزهر، وغرف طلبة العلم، وكتب العلم الشرعيّ. فعلوا كل هذا وأضعافه وأشياء أخرى لا يقوى لساني على قولها، بل سأقولها: لقد انتهكوا حرمة المساجد والمقدّسات، كما انتهكوا حرمة الأعراض. . . أعراض المسلمات الطاهرات العفيفات، وحرمة الدماء المسلمة».

وانخرط والدي في البكاء، وهو يروي لنا ما سمعه من جدّنا رحمه الله، وصار ينقله لنا بأسلوب الشيخ الخطيب، حتى بلغ به التأثر مداه، حتى دمعتْ منا العيون، وارتجفت القلوب والأوصال، فبكينا كلنا، حتى إذا هدأنا وسكت عنا البكاء، جلس بنا أمام المحراب، ثم تابع يقول:

ــ كانت خطبة الشيخ عزّ الدين رائعة، هزّ بها القلوب، وحرّك العقول، وأثار العواطف، وأيقظ أصحاب المروءات والنخوات والنجدات وهو يقول:

«وها هم أولاء قد جاؤوكم... جاءكم حَفَدَة الفرنسيين الصليبيين، ومعهم أحقادهم التي حملها قائدهم نابليون من قبل، ومعهم فجورهم وفسوقهم وكفرهم... إنهم جاؤوا لإذلالكم، وقهر إسلامكم، ونهب خيراتكم، وللتنفيس عن أحقاد تاريخية لا يستطيعون إلا الإفصاح عنها بين الحين والحين، منذ تآمروا مع التتار، منذ الحروب الصليبية، منذ ثورتهم اليهودية، منذ احتلال نابليون لمصر، ومحاصرته مدينة عكا التي مرَّغت كبرياءه برمالها وتحت أقدام جزّارها، وكانت السبب في انكساره واندحاره... وها هم أولاء حَفَدَتُه، جاؤوكم من جديد، فهل ترضى نخوة الرجال أن ينكسر الرجال، ويتواروا كربّات الحجال؟ هل يرضى الإسلام لأبنائه، أن يكونوا عبيداً لحَمَلَة الصليب؟ وهل يرضى أبناء الإسلام إلاأن يكونوا أعزّة كراماً، يذودون عن الأرض والعرض، ويحمون المقدّسات؟»

ثم هتف صارخاً:

«يا حماة الديار... المنيّة ولا العار...

يا حماة الدين... الموت ولا العيش تحت رحمة الصليبيين.

يا حماة الأعراض هبّوا، فأعراض الصبايا تستصرخ... أعراض الأمهات والأخوات والبنات والزوجات المسلمات المؤمنات، الطاهرات المصونات، تستغيث بكم، يا أصحاب الشوارب واللحى، يا أيها العرب الأماجد...».

وعلا نشيجنا ونحن نستمع إلى خطبة الشيخ عز الدين، وكأنه قائم فينا يخطب الآن، وليس قبل أكثر من نصف قرن.

مسح والدي عينيه المغرورقتين، ثم قال:

ــ قال لنا والدي رحمه الله: لقد هزّ الشيخ أعواد منبره، ولكن ليس كما هزّ أوتار القلوب بصيحاته المدويّة، وكانت الهتافات تتجاوب بها الحناجر وجنبات هذا المسجد الذي نجلس فيه.

صادقة: وهل حدَّثك جدِّي الحاج صادق عن إمامته ووقوفه في هذا المحراب يا أبـي؟

الأب: قال لي والدي رحمه الله:

بعد تلك الخطبة الحماسيّة التي لم أسمع بمثلها من قبل، على كثرة المشايخ والخطباء في سورية، قام الشيخ عزّ الدين في محرابه هذا، وصلّى بنا صلاة الجمعة، وقرأ سورة (محمد) صلّى الله عليه وسلم، فكانت تلاوته هذه بمثابة الخطبة... كأنه كان يخطب وهو يهدر بقول الله تعالى:

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوَثاقَ، فإما منّاً بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك ولو يشاء الله لانتصرَ منهم، ولكنْ ليبلوَ بعضَكم ببعض، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهم، سيهديهم ويُصْلِحُ بالَهم، ويُدْخلهم الجنَّة عرَّفها لهم. يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامكم. والذين كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، دمَّر اللَّهُ عليهم. وللكافرين أمثالُها. ذلك بأنَّ الله مولى الذين آمنوا، وأنَّ الكافرين لا مولى لهم﴾ صدق الله العظيم.

صادق: الله أكبر... كأنني لم أسمع هذه الآيات الرائعات من قبل... كأنني لم أقرأ هذه السورة العظيمة قبل اليوم.

صادقة: وأنا الآن أتخيّل الشيخ عزّ الدين وهو يتلو سورة القتال هذه، وكأنه مشمِّر لخوض حرب ضروس.

الأب: وكان ذلك يا بنتي... فالشيخ عزّ الدين كان شيخاً عالماً عاملاً بما يعلم، تقيّاً نقيّاً، خاشعاً متبتّلاً، وكان مجاهداً عظيماً.

وسكت والدي لحظاتٍ كأنه يسترجع ماضياً قد أوغل في القِدَم حتى غدا تاريخاً، ثم قال:

ـ قال لنا والدي:

ثم بقيتُ خمسة أيام في بلدة جبلة، أصلّي الصلوات الخمس خلف الشيخ، كنت أقف خلفه في الصفّ الأول، وكانت قراءته السِّرِّيَّة مسموعة، كنت أسمع ما يقرأ من آيات الله سرّاً وجهراً، وكان الشيخ بكَّاءً... كان يبكي وهو يقرأ ويفكّر فيما يقرأ... وكنَّا نحن المصلين خلفه، نبكي لبكائه، ونخشع لخشوعه، وكان إذا انتهى من صلاته، يستقبل المصلين، فيسلّم عليهم، ويدعو لهم، ويطلب منهم الدعاء له، وكان يحدّثهم عن الإسلام الذي ضيَّعه أهله، وعن أسباب تأخر المسلمين، وعن أسباب النصر والخذلان في المعارك وفي هذه الحياة، وكان يأمرنا بالإعداد والاستعداد لملاقاة العدو الذي احتلّ البلاد، وأذلّ العباد، وكان يقول: ليس الإيمان بالتمنّي، ولكنَّه ما وَقَر في القلب، وصدّقه العمل، إذ لا قيمة لقول بلا عمل، لأن القول دعوى، والعمل هو البيِّنة على مدى صدق تلك الدعوى في الواقع العملي... القول صورة، والعمل روح تلك الصورة. ويا ويل الأدعياء من يوم عظيم ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾.

وسكتَ أبـي، أعني جدَّكم، هنيهةً، وبدا التأثر العنيف على وجهه الوضيء ثم قال:

نظر إليّ الشيخ عزّ الدين مرَّة، وتأمل لباسي الجميل الثمين، وعرف أنني من أهل الغنى وأصحاب الأموال، ثم قال في شدّة:

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«مَنْ وُسِّعَ عليه في دنياه، فلم يَعْلَم أنه قد مُكِرَ به، فهو مخدوع عن عقله».

هل فهمت يا أفندينا؟

كانت أمي وأخي الصغير وأختي الصغيرة في صحن المسجد، ثم أرسلتْ أمّي أخي الصغير لنخرجَ إليها، فنهض أبـي ونهضْنا معه وهو يقول:

ـ كان الشيخ عزّ الدين رجلاً أيَّ رجل... كم تمنَّيتُ اللقاء به، ولكنه كان بعيداً عنا، وكنتُ صغيراً، أسمع أخباره في فلسطين، ثم سمعتُ خبر استشهاده في أحراش (يَعْبَد) وأنا تلميذ في المرحلة الثانوية.

صادق: أليس الشيخ عزّ الدين من جبلة يا أبـي؟

الأب: بلى من جبلة... وُلِد فيها، وتعلم علومه الأولى فيها.

صادق: لماذا ترك بلدته ـ إذن ـ وذهب إلى فلسطين؟

صادقة (وهي تبتسم): عفواً يا صادق... نقطة نظام.

الأب: هل خرج أخوك عن الموضوع يا صادقة؟

صادقة: إنه يقفز... يريد أن يقفز قفزة بعد قفزة، وينتهي الموضوع.

الأب: ماذا تريدين أنت؟

صادقة: أريد أن أسأل أسئلة محدّدة، وأريد الإجابة المحدَّدة.

الأب: في الطريق؟

صادقة: أجل يا أبـي... كلمةً وغطاءَها.

الأب: هاتي يا صادقة... سلي ما شئتِ.

صادقة: أنا أعرف أن الشيخ عزّ الدين وُلد في بلدة جبلة التابعة لمحافظة اللاذقيّة، وأعرف أن اللاذقيّة وجبلة وبانياس وطرطوس من المدن السُّوريَّة الواقعة على الساحل السوريّ، على البحر الأبيض المتوسط، ولكن... متى وُلد الشيخ عزّ الدين يا أبـي؟

الأب: سنة ١٨٨٢ ألف وثماني مئة واثنتين وثمانين، أو سنة ألف وثلاث مئة للهجرة.

صادقة: عظيم... عظيم... وأين تعلم؟

الأب: كان أبوه الشيخ عبد القادر القسَّام شيخاً صوفياً، وكان عندهم كُتَّاب يتعلم فيه الصغار من أبناء جبلة وبعض القرى المحيطة بها، والقريبة منها، وكان الشيخ عزّ الدين أحد أولئك الصغار الذين يتعلمون في الكُتَّاب، وكان عز الدين مضرب المثل في الدراسة والجدّ والذكاء.

صادقة: ألم تكن في جبلة مدارس؟

الأب: كانت الأميّة متفشّية في العالم الإسلامي، وكان العرب في سورية وغيرها تغلب عليهم الأميّة، ولا توجد مدارس إلا في المدن الكبيرة، وكان الأولاد الأذكياء والنجباء يكملون تعليمهم في الجامع الأزهر في القاهرة، وبعضهم يذهب إلى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية.

صادق: وأين ذهب الشيخ عزّ الدين يا أبـي؟

الأب: ذهب إلى القاهرة، إلى الأزهر الشريف.

صادقة: هل كان أبوه غنياً يا أبـي؟

الأب: بل كان فقيراً، وكان عز الدين يساعده في عمله في الحقل وسواه، وكان يذهب إلى الكُتَّاب في المساء... يعمل في النهار، ويتعلم في المساء، ولمّا رأى أبوه شدة تعلقه بالعلم، باع الذي فوقه والذي تحته، وأرسله إلى الأزهر.

صادق: كيف؟

الأب: بالبحر... أخذه إلى جزيرة (أرواد) التي سنزورها بعد قليل، ومن هناك، سافر إلى الإسكندريّة، ثم إلى القاهرة، ليدرس ويتعلم في الأزهر.

كنّا وصلْنا إلى السيارة، فامتطيناها، وطارت بنا إلى مدينة طرطوس، وهناك أبقيناها في المَسَار، يعني الكراج، وركبْنا زورقاً إلى جزيرة (أرواد) الجميلة، وزرْنا قلعتها التاريخيّة، وتغدّينا في مطعم جميل، وتجوّلنا في أزقّتها الضيّقة، وسعدنا بأهلها الكرماء، وصلّينا في أحد مساجدها، ثم عدنا إلى طرطوس، ومنها إلى مدينة حمص، حيث بِتْنا في فندق نظيف جميل، استأجرْنا جناحاً فيه، وعندما أَوَيْتُ إلى غرفتي، كان حديث الوالد قد مَلَكَ عليَّ عقلي وقلبـي وشعوري.

استلقيتُ على سريري وأنا أفكّر في ذلك الشيخ العجيب الذي وُلد في الربع الأخير من القرن الماضي، في بلدة سورية، وتعلم في الأزهر الشريف في القاهرة، واستشهد في فلسطين... واستغربت: شيخ ومقاتل وشهيد وفي فلسطين، ويحرّض على قتال الفرنسيين المستعمرين في بلدة جبلة؟!.

لقد درستُ في كتب التاريخ المقررة في مدارسنا، وحفظتُ أسماء السياسيين المناضلين الذين حرَّروا سوريةَ من الاستعمار الفرنسيّ، من أمثال: سعد الله الجابري وعبد الرحمن الشهبندر وشكري القوتلي وفوزي القاوقجي وهاشم الأتاسي ورشدي الكيخيا وغيرهم، وليس في كلِّ هؤلاء شيخٌ واحد، فكيف يكون الشيخ عزّ الدين القسام شيخاً ومقاتلاً يُستشهد في فلسطين وهو سوريّ؟

وفيما كنت أحدث نفسي بهذا، برز أمامي شيخ وسيم، ذو طلعة بهيّة، وقوام ممشوق، يلبس جُبَّة سوداء أنيقة، وعلى رأسه عمامةٌ جميلة، وتزيّنُ وجهَه لحيةٌ لطيفة، اختلط بياض شعرها بسواده، فأضْفَت عليه وقاراً.

هبَبْتُ من فوق سريري أستقبله، وأنا لا أعرفه، وإن كنتُ قد خمَّنْتُ أنه شيخ شاميّ، لأن لباسه يشي بذلك.

كان الشيخ يبتسم في عذوبة محبَّبة ويقول:

ــ احْزرْ من أكون؟

فسألته في لهفة:

ــ من تكون يا سيِّدي الشيخ؟ فكأني أعرفك.

قال الشيخ والابتسامات يطفح بها وجهه المتوضّىء بالنور:

ــ سأقول لك..

أنا شيخ من سورية، قاتلتُ الفرنسيين في جبل صهيون من جبال اللاذقيّة، ودرستُ في الجامع الأزهر، وقاتلتُ الإنكليز واليهود في فلسطين...

فصحتُ:

ـ ثم استشهدتَ في أحراش (يَعْبَد) أليس كذلك يا سيِّدي الشيخ؟

ـ بلى. . . فمن أنا؟

وهنا دخلت أختي صادقة وهي تقول بصوتها الناعم:

ـ أنتَ يا جدِّي الشهيد، أنت الشيخ عزّ الدين القسام. أليس كذلك يا أخي يا صادق؟

صادق: هذا ما كنتُ أريد أن أقول. . . الشيخ عزّ الدين نفسه. . . أليس كذلك يا سيِّدي؟

الشيخ: بارك الله فيكما. . هل أنتما أخوان؟

صادقة: نعم يا جدّي. . . أخي صادق، وأنا صادقة، أخوان شقيقان، نحبّ التاريخ الإسلامي، ودراسة الشخصيّات التاريخيّة الإسلامية من أمثالك يا جدّي. . .

صادق: فأنت وأمثالك ـ يا سيِّدي القائد الشيخ ـ نجوم الإسلام والمسلمين، يهتدي المسلمون بهديكم الذي هو هَدْيُ الرسول القائد محمد صلّى الله عليه وسلم، ويسيرون على خُطاكم في العلم والعمل.

الشيخ: وخاصة الجهاد، ذروة سنام الإسلام، والجهادُ ماضٍ إلى يوم القيامة، وما تركَ قومٌ الجهادَ إلا ذلُّوا، فحذارِ من ترك الجهاد، والخوفِ من خوض المنايا، فقضاءُ الله نافذ، والأجَلُ مكتوب، لا ينقص ساعة ولا يزيد. . . لا ينقصه الإقدام، ولا يزيده ويطيله الجبنُ والخوف والإحجام.

صادق: وهذا ما نريد الحديث عنه.

صادقة: ولكنني أرجو من جدّي العزيز، أن يحدِّثنا عن حياته. . . عن طفولته. . . عن دراسته. . . عن حياته العمليّة. . . ثم عن جهاده الذي قاده إلى الفردوس الأعلى بمشيئة الله، ثم ببركة الجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى.

الشيخ: وإن كنتُ لا أرى فائدة في الحديث عن غير العلم والعمل به، ثم عن الجهاد. . . سلوا ما شئتم.

صادقة: حدّثنا والدي اليوم عنك. . . كنا في جبلة. . . المدينةِ التي وُلدتَ فيها يا جدّي العزيز.

الشيخ: كانت جبلة قرية، فهل صارت مدينة.

صادقة: أجل يا جدّي. . . صارت مدينة جميلة. . . زرناها. . . زرنا جامع السلطان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى.

الشيخ: في هذا المسجد بدأت نشاطي التعليمي، أعلِّم الناس أمورَ دينهم، كما أعلّمهم شيئاً من لغتهم. . . ماذا أقول. . . لقد كان الجهل فاشياً، حتى كان المرء يتنقَّل من بلدة إلى أخرى، ومن قرية إلى قرىً أخرى، وهو يفتّش عمن يكتب له رسالة، أو يقرأ له رسالة، فلا يجد. . . شيء فظيع انتهى بالمسلمين إلى الهزائم.

صادقة: ثم ماذا يا سيِّدي؟

الشيخ: معذرةً يا ابنتي، فقد قاطعْتُك. . . أكملي حديثك يا بنتي.

صادقة: وزرنا جامع المنصوري، ورأينا المنبر الذي كنتَ تعتليه، والمحرابَ الذي تقف فيه، وحدّثنا الوالد عن أبيه الذي رآك وسمع خطبتك الناريَّة النورانيّة التي حرَّضتَ فيها على قتال الفرنسيين المستعمرين، وصلَّى خلفك خمسة أيام، يستمع إلى تلاوتك، ويستمتع بنشيجك الخاشع في صلواتك.

الشيخ: هل كان جدُّكم من سُكَّان جبلة؟

صادقة: لا. . . جاءها زائراً، وعاد ثائراً، بعد أن رآك وسمع خطبتك ودروسك بعد الصلوات.

الشيخ: لجامع المنصوري مكانةٌ في النفس لا تُمحى، فقد شهد هذا المسجد وشهد روّاده من أهل جبلة والقرى التابعة لها ميلاد الثورة في نفس شيخه الشابّ

الذي درس في الأزهر، وتشبّع بالأفكار الثائرة التي كانت تموج تحت عمائم شيوخ الأزهر وطلابه. . . أفكار الثائر الإسلامي والرجل الإعصار، الشيخ جمال الدين الأفغاني، رحمه الله رحمة واسعة، وأفكار تلميذه الشيخ الإمام محمد عبده تغمّده الله وشيخه وتلاميذه بفيض رحمته ورضوانه، وأثابهم على ما قدّموه لهذه الأمة، ولهذا الدين.

صادق: متى ذهبت للدراسة في الأزهر يا سيِّدي؟

الشيخ: سنة ١٨٩٦.

صادقة: يعني. . . كان عمرك أربع عشرة سنة يا جدّي.

الشيخ: أجلْ. . . كنتُ ابن أربع عشرة سنة. . . ولكن. . . كيف عرفت؟

صادق: من أبينا اليوم يا سيِّدي.

الشيخ: عظيم. . . عظيم. . .

وفي الأزهر، يا أحبابي، تعلمتُ العلوم الشرعية، وتعلّمت الثورة على الفساد والمفسدين، وعلى أسباب تخلّف المسلمين، كالجهل، والفقر، والأمراض الفاشية، والابتعاد عن الدين وتعاليمه، وكالتآمر على الإسلام والمسلمين، من قِبَل الإنكليز والفرنسيين والروس وغيرهم من الدول الاستعمارية الحاقدة على العرب والإسلام والمسلمين. تلك التي ائتمرت فيما بينها، وقررت تمزيق الخلافة، لتمزّق المسلمين وتجعل منهم شيعاً وأحزاباً ودولاً وقوميّاتٍ متناحرةً متقاتلة، يلهو بعضها ببعضها الآخر، فيما المستعمر يحقق أغراضه، وتنفرد كلُّ دولة أوربية بدويلة أو أكثر من تلك الدويلات التي أوجدوها، لتزداد ضعفاً وتخلفاً، فتلجأ إليها، وتكون ذيلاً لها، تأتمر بأمرها، وتقف إلى جانبها ضدّ أخواتها العربيات والمسلمات.

صادقة: بمن تأثرتَ من العلماء في مصر يا جدّي؟

الشيخ: كان الأزهر منارة علم ومركز إشعاع فكريّ وثوريّ يا صادقة، وكان علماؤه قادة رأي وفكر وثورة على الإنكليز المحتلين، وعلى السياسيين ورجال

القصر المرتبطين بالإنكليز، المناوئين للدولة العثمانية، وسبق لي قبل قليل، وذكرتُ لكما أنني تأثرت بأفكار الشيخ جمال الدين الأفغاني وآراء تلميذه الشيخ محمد عبده، وبمدرسة الجهاد التي أنشأها الشيخ محمد رشيد رضا، تلميذ الشيخ محمد عبده. كما تأثرت بأفكار الكاتب العالم المفكر الثائر عبد الرحمن الكواكبي.

صادقة: إلى أيِّ شيء كان هؤلاء المفكّرون يدعون؟

الشيخ: كانوا يدعون إلى نهوض الأمة من الوهدات السحيقة التي تردَّتْ فيها... إلى إيقاظها من سُباتها الطويل... إلى القضاء على عوامل التخلّف عند المسلمين... إلى عودة المسلمين إلى إسلامهم الذي به عزُّهم، ولا عزّة ولا كرامة ولا مستقبل لهم بغير هذا الدين العظيم.

صادق: وما أسباب تخلّف الأمة الإسلامية في رأيهم يا سيِّدي؟

الشيخ: أهمُّ تلك الأسباب ـ يا بنيّ ـ بُعْدُهم عن دينهم، وهذا البُعد تسبَّب في كثير من النكبات والأمراض النفسية والخلقية، كالكذب والغشّ والكسل والغيبة والنميمة والمظالم الاجتماعية، والتخلف العلمي، والجهل، كما أنهم رأوا في الاستبداد السياسي سبباً وجيهاً في تخلُّف الأمة، الأمر الذي أطمع الدول الاستعمارية الكافرة فينا، فاحتلّ الفرنسيون تونس والمغرب والجزائر ومصر وسورية ولبنان، واحتلّ الإنكليز مصر، بعد انحساب الفرنسيين منها كما احتلوا العراق والسودان وفلسطين والأردنّ والهند، واحتلّ الطليان ليبيا... ماذا أعدِّدُ لكم؟ كلّ هذا بسبب تخلّف المسلمين، تخلّفوا دينياً، فتخلّفوا خلقيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وعلميّاً، ولهذا دعا أولئك المصلحون الثائرون إلى التمسك بروح الإسلام ومبادئه التي تدعو إلى العزّة والكرامة والعلم والعمل، ودَعَوْا إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وندّدوا بالاستبداد والاستعمار وما ينجم عنهما من ظلم وتردٍّ في السلوك والإخلاص.

صادقة: يا سلام... شيء بديع... ثم ماذا يا جدّي؟

الشيخ: الأفغاني ثائر إسلامي عالمي، تناول أسباب تخلُّف المسلمين وتأخُّرهم بلسانه وقلمه واتصالاته بالقادة والملوك... اتصل بشاه إيران ونصحه فلم يقبل نصائحه، واتصل بملك الأفغان، وبالسلطان عبد الحميد، وبخديوي مصر، وعاش حياة مطاردة وملاحقة، إلى أن مات مسموماً.

صادقة: رحمة الله عليه... وتلميذه الشيخ محمد عبده؟

الشيخ: أيضاً تعرَّض ـ كأستاذه وصديقه الأفغاني ـ إلى المحاربة والمطاردة والنفي، لأنه كان يحارب الإنكليز، ويحارب الجمود... كان يدعو إلى تحرير الفكر من قيود التقليد، وكان ـ فيما يكتب ويخطب ويدرّس ـ يميّز بين ما للحكومة من حقّ الطاعة على الشعب، وما للشعب من حقّ العدالة على الحكومة.

صادق: والكواكبي يا جدِّي؟

الشيخ: كان همُّه القضاء على الاستبداد السياسي واستعباد البشر للبشر.

صادقة: ولذلك أسمى كتابه الرائع: (طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد).

صادق: ثمَّ ماذا يا سيِّدي؟

الشيخ: ثمَّ إنَّ الكواكبي كان يدعو إلى أن تكون الخلافة بيد العرب، وأن يكون الخليفة عربياً، والرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم قال: الخلافة في قريش، يعني في العرب... يعني أن يكون خليفة المسلمين عربيّاً.

صادقة: ورأيك أنت يا جدّي؟

الشيخ: أنا من رأي الكواكبي... أتمنى أن يكون خليفة المسلمين عربياً مسلماً تقيّاً قويّاً عادلاً يرعى مصالح المسلمين، ويذود عن حماهم. فما تخلّف المسلمون إلا بعد أن استلم المسلمون من غير العرب أزمّة الأمور، كالعجم والدَّيْلم والترك وسواهم.

صادقة: وهذا هو رأي الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

الشيخ: الشيخ حسن البنا من مدرسة الأفغاني، لأنه تلميذ الشيخ محمد رشيد رضا، ورضا تلميذ محمد عبده، ومحمد عبده تلميذ الأفغاني... سلسلة من الرجال الذين أهمَّهم انحطاط أمة الإسلام وأقلقهم فعملوا للقضاء عليه.

صادقة: هل تعرَّفت إلى الإمام الشهيد حسن البنا يا سيِّدي؟

الشيخ: لا... لم تكن بيننا معرفة شخصية... كانت بيننا مراسلات وتفاهم، وقد كان مهتماً بقضايا المسلمين في كل مكان، وخاصة قضية فلسطين، ولهذا أرسل إليّ وفداً من إخوانه، وتفاهمنا على العمل معاً لتحرير فلسطين من الاستعمار الإنكليزي، واعتبار الإنكليز العدوَّ الأول للمسلمين، لأنهم وعدوا اليهود بتحقيق حلمهم في أن يكون لهم وطنٌ قومي في فلسطين. واتفقنا أنا ووفد الشيخ البنا على العمل معاً، لمنع اليهود من تحقيق حلمهم هذا في فلسطين، كما اتفقنا على العمل لإقامة دولة إسلامية في فلسطين أو سواها من بلاد المسلمين، تكون النواة لقيام دولة الخلافة التي ألغاها الماسوني الملحد مصطفى كمال أتاتورك، كما ألغى أو استبدل بالكتابة بالحروف العربية، الكتابة بالحروف اللاتينية... عليه من الله ما يستحقّ.

صادق: هل كنتم تَنْوُون إعادة الخلافة العثمانية يا سيِّدي؟

الشيخ: لا... كنا ننوي إنشاء دولة إسلامية تكون دولة الخلافة، عندما يلتفّ حولها المسلمون، وتنضمّ إليها الشعوب الإسلامية ودولها.

صادقة: هل أفهم من هذا، أنك انتسبتَ إلى جماعة الإخوان المسلمين يا جدّي؟

الشيخ: وبايعتُ الشيخ البنا... حمّلتُ وفده تلك البيعة، لأنني وثقت بالرجل، ووثقتُ بحركته وبرجاله.

صادق: الله أكبر... لا يعرف أقدار الرجال إلا الرجال.

صادقة: كم بقيتَ في الأزهر يا جدّي؟

الشيخ: عشر سنين، عدتُ بعدها إلى بلدتي (جبلة) وكلّي ثورة على الأوضاع المتخلّفة، من جهل وفقر ومرض وتعلّقٍ بالخرافات والبدع، وكلّي حسرةٌ وألم وتصميم على الوقوف في وجه الغزو الحضاريّ والفكريّ الذي صار واضحاً في مصر وفي بلدان الخلافة العثمانية.

صادق: وهل استطعتَ بإمكاناتك الفردية، أن تقف لتحارب كلَّ ذلك؟

الشيخ: قررت في البداية أن أعمل لمحو الأمية الطاغية... أمّية في القراءة والكتابة، وأمّيّة في الدين وأحكامه وتعاليمه، وأمية في الفكر.. بدأت أدرّس الناس في جامع السلطان إبراهيم بن أدهم رحمه الله، وقد واجهتني في البداية، متاعبُ ومصاعبُ، ولكنني قررتُ التصدّي لها، وتذليلها... وقد أقبل الناس على المسجد، ليتعلموا أمور دينهم، أحكام الصلاة والصيام والحجّ والزكاة، فشجّعني إقبالهم، فصرت أعلّمهم القراءة والكتابة... أعلّم الكبار في الليل، لأنهم كانوا يعملون في النهار لتحصيل أقواتهم، وأعلِّم أولادهم في النهار في الكُتَّاب، وأفتّح عقولهم وأذهانهم، وأثير عواطفهم في خطبة الجمعة في جامع المنصوري الذي صار يغصّ بالمصلّين الذين يأتون من أحياء جبلة وحاراتها، ومن القرى المحيطة بها.

صادق: هذا يعني أنك خطيب مفوّه يا سيِّدي، حتى استطعتَ اجتذاب المصلّين من البلدة ومن قراها.

الشيخ: ذلك التوفيق من الله الكريم، كما أنَّ موقع المسجد في وسط البلدة، ساعد في اجتذاب المصلّين... ثم... ليست الفصاحة كلّ شيء يا صادق.

صادقة: في نفسي سؤال أتردّد في طرحه عليكم يا جدّي العالم.

الشيخ: لماذا التردّد يا ابنتي؟

صادقة: لأنه محرج.

الشيخ: سلي ما شئتِ يا صادقة، ولا تتحرّجي.

صادقة: أنا يا جدّي العزيز أقرأ بغزارة، خاصة كتب التاريخ، ودرجتي في مادة التاريخ أعلى درجة في المدرسة، وكلّ ما قرأتُه عن الثورات السورية والمصرية والفلسطينية والعراقية وسواها، لا أجد في ما قرأت ذكراً للعلماء والمشايخ. . .

صادق: وأنا كنتُ أفكِّر بما تقولين يا أختي، فهل عند سيِّدي الشيخ المجاهد جواب على هذا؟

ابتسم الشيخ عزّ الدين، أعني أنّ ابتسامته كانت غريبة، لأنّ فوقها تقطيبة في الجبين، فجمع، هذه المرة، بين الابتسام والتقطيب ثم قال:

ــ المسألة بسيطة، لا تعقيد فيها.

ــ كيف؟

أجاب الشيخ الذي لا تفارق الابتسامة العذبة شفتيه:

ــ لأنَّ المسلمين متخلّفون، وغيرهم متقدّم عليهم. . . وغيرُهم من النصارى واليهود ومن أبناء الطوائف والأقليّات الأخرى، ومن أبناء المسلمين المنحرفين والمتمذهبين بالمذاهب المعادية للإسلام، كالعلمانية والشيوعية والقومية الملحدة، والوجودية، والسائرين في ركاب الحضارة الغربية دون وعي أو إدراك لمراميها الخفيّة والمعلنة. . . هؤلاء هم الذين كتبوا وما زالوا يكتبون تاريخ الثورات وتاريخ الشعوب المسلمة، وتاريخ المجتمعات العربية والإسلامية، وهؤلاء يكتبون ما يخدم وجهة نظرهم، ويستبعدون الإسلام والإسلاميين من دائرة الفعل المؤثر، والمسلمون غارقون في العجز والجهل والاقتتال حول التُّرَّهات والتفاهات، ولم يلتفتوا للكتابة عن تاريخهم، عن تاريخ بلادهم، عن ثوراتهم على الأجنبيّ الدّخيل. . . إنهم ينتظرون من يكتب لهم، وعندما يقرؤون ما يكتب أولئك، ويرون تزييف الحقائق والتاريخ، تنطلق ألسنتهم بالسِّباب والشتائم، كما قال الشاعر القديم: «أشبعتُهم شتماً وأوْدَوْا بالإبل» هذه هي حال المسلمين.

صادقة: يا حسرةً على المسلمين.

صادق: هل تأتينا بأمثلة من العلماء المجاهدين؟

الشيخ: خذوا ما جرى في بلدكم سورية مثلاً... من قاتل الفرنسيين الغزاة؟

عندما أنذر غورو حكومة الملك فيصل في دمشق، وأمرها بحلّ الجيش السوري، انصاعت الحكومة للإنذار، وبادرت إلى حلّ الجيش... فماذا جرى؟ نهض العلماء في دمشق، وعلى رأسهم الشيخ المجاهد كامل القصّاب، يخطبون في المساجد والساحات العامة والأسواق والحارات، يحرّضون الناس على قتال الفرنسيين... لبس المشايخ أكفانهم، وحملوا السلاح، وهبُّوا إلى (ميسلون) لملاقاة الجيش الفرنسي القادم من بيروت، ومعه طائراته ودباباته وسياراته ومصفّحاته ومدافعه ورشاشاته، وليس مع المشايخ وجموع الشعب التي لحقت بهم سوى المسدسات والبنادق العتيقة، والسيوف والخناجر والعصيّ... عندئذ، وبعد أن عرفت الحكومة أن الجنرال غورو لم يستجب لندائها، واحتجّ بأن البرقية الجوابية لإنذاره لم تصل إليه، وأنه أمر جيشه بالزحف نحو دمشق... عندئذ هبّ وزير الدفاع الشاب البطل يوسف العظمة، ومعه بقايا من الجيش السوري المنحلّ، ومعهم بعض المدافع والعربات والرشاشات والبنادق... وكانت معركة ميسلون، وكانت ــ كسائر معارك المسلمين مع أعدائهم ــ غير متكافئة في العَدَد والعُدَد، فاستشهد عددٌ من المشايخ في ميسلون، وتمزّقت جثث بعض المشايخ فلم يُعثر لها على أثر، واستشهد يوسف العظمة، ودخل الجيش الفرنسي دمشق على جثث الشهداء، وعاد المشايخ أو من بقي منهم حيّاً، ليحرّضوا الشعب السوري على مقاطعة الفرنسيين، وعلى العصيان المدني، وعلى الإعداد للثورة العارمة عليه، وكانوا المثلَ في البذل والتضحية بالمال والجهد والوقت والنفس.

صادق: هل تذكر لنا أسماء بعض الشهداء من المشايخ يا سيِّدي؟

الشيخ: لا بأس... من أولئك المشايخ الشهداء في ميسلون: الشيخ عبد القادر كيوان ــ خطيب الجامع الأمويّ بدمشق ــ والشيخ محمد كمال الخطيب

ـ خطيب جامع الخريزانية في سوق مدحت باشا بدمشق وإمامه ـ وهذا الشيخ أصابته قذيفة مزّقته مزقاً، ولم يعثروا لجثته على أثر. والشيخ ياسين كيوان خطيب جامع القلبقجية، والشيخ صلاح الدين أبو الشامات.

كما أذكر ممن استشهد في معارك أخرى بعد معركة ميسلون: الشيخ زكي الشربجي الذي جُرح في معركة ميسلون، أصابته رصاصة في يده اليمنى، والشيخ محمد حجازي الكيلاني الذي شارك في معركة ميسلون، والشيخ محمد شريف اليعقوبي، وهو فقيه مالكي، قاد كتيبة من الشبان المغاربة المتطوّعين، وأخذوا السلاح من الدولة، وانضموا إلى المقاتلين في ميسلون. وهناك الشيخ محمد عيد الحلبي الذي عمل مع الشيخ كامل القصاب في تهيئة السلاح لمتطوعي معركة ميسلون. وكان الشيخ عيد من أولئك الأبطال الثلاثة والثلاثين الذين حكمت عليهم سلطات الاحتلال الفرنسي بالإعدام.

صادقة: كيف كان ذلك يا جدّي؟ ومتى؟ ولماذا؟ ومن هم أولئك الأبطال؟

الشيخ: أصدر المجلس الحربي الفرنسي الأعلى بتاريخ ١٩٢٠/٨/٩ قراراً بإعدام الشيخ كامل القصاب والشيخ عيد الحلبي والشيخ رضا الرفاعي، والشيخ عبد الله عز الدين وغيرهم من المناضلين أذكر منهم: شكري القوتلي ورياض الصلح وإحسان الجابري وأحمد مريود وخير الدين الزركلي وغيرهم من المناضلين الشرفاء. اتّهمهم المجلس الحربيّ الفرنسيّ بأنهم «مجرمون بالاتفاق والتحريض والدسائس. . . ولذلك قرر المجلس العسكريّ الأعلى إدانتهم، والحكم عليهم بعقوبة الإعدام، وبمصادرة جميع أملاكهم.

صادق: الله أكبر. . . أين كانت أسماء أولئك العلماء المجاهدين؟ كيف أغفل المؤرخون ذكرهم؟

الشيخ: وأغفلوا ذكر غيرهم من المشايخ المجاهدين. كالشيخ عبد الحميد كريّم، الذي كان يدرّس في المدرسة الكاملية، وكان صاحب مدرسة النهضة العلمية، وكان خطيب جامع الشامية في سوق ساروجه بدمشق. . . لم تمنعه

أشغاله ولا بيته عن تحميس الناس للقتال في ميسلون، كما لم تمنعه من المشاركة بنفسه وماله في معركة ميسلون.

صادقة: أيضاً يا جدّي العظيم.

الشيخ: وأذكر من أولئك الأبرار: الشيخ محمد صالح الخطيب، خطيب جامع القلعي ـ الذي قاتل في ميسلون إلى جانب أخيه الشيخ محمد كمال الخطيب.

وهناك عدد آخر من مشايخ دمشق قاتلوا في ميسلون، كالشيخ سليم الدّرّا، والشيخ محمد توفيق الدّرّا، والشيخ عمر الصّبّاغ، وغيرهم كثير من علماء دمشق الذين أغفل (المؤرخون) ذكرهم.

صادقة: لا ينبغي لنا أن نلوم الخصوم والأعداء إذا لم يكتبوا التاريخ إلا من وجهة نظرهم، إنما نلوم دارسي التاريخ من الإسلاميين المتقاعسين عن كتابة التاريخ العربيّ الإسلامي من وجهة نظرنا، ونحن موضوعيون.

الشيخ: أنا ألوم كلا الطرفين يا صادقة.

صادقة: لماذا؟

الشيخ: لأن المؤرخ محايد... ينبغي أن يكتب الأحداث كما جرت، بموضوعيّة وحياد، حتى لو كان عن عدوّه، خاصة إذا علمنا أنَّ أولئك المؤرخين يزعمون أنَّهم عَلْمانيون محايدون، كما ألوم المقصِّرين من الإسلاميين الذين ضيَّعوا الكثير من جهاد المجاهدين والشهداء الذين يرفعون الرأس.

صادق: نريد الآن معرفة دور المشايخ، يا سيِّدي، في الثورات السورية التي أجبرت الاستعمار الفرنسي على الجلاء عن أرضنا العربية السورية المسلمة.

الشيخ: كان علماء دمشق سبّاقين في التخطيط لتلك الثورات... خططوا لها، وحرّضوا المسلمين ضد الفرنسيين، وحثّوهم على الثورة، وشاركوا في تلك الثورات.

صادق: هذا كلام مجمل يا سيِّدي... نريد شيئاً من التفصيل.

الشيخ: على الرّحْب والسَّعة...

كان محدّث الشام الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، رحمه الله رحمة واسعة، على رأس علماء دمشق، بل على رأس علماء سورية وبلاد الشام بأسرها، كان يعمل في السِّرِّ والعلن ضدّ فرنسا المستعمرة. . . كان يحرّض على الثورة عليها في دروسه في الجامع الأموي، يحرّض تلاميذه الكثر، ويدعوهم إلى تحريض الناس في القرى والبلدات التابعة لدمشق وحوران والجولان، كما كان يأتيه العلماء والوجهاء من سائر المدن والبلدات السورية واللبنانية، فيحمّسهم ويدعوهم إلى الاستعداد لمناجزة جيش الاحتلال الفرنسي، كما كان تلاميذه وإخوانه المشايخ في دمشق خاصة، وفي المدن السورية الأخرى عامة. . . يأتونه ويستشيرونه، فيشير عليهم بتعبئة الناس ضد الفرنسيين، بل إنه قام بصحبة عالم دمشق الشيخ علي الدقر وعدد من تلاميذهما المشايخ، قاموا بجولة في المدن السورية، لتحريض أهلها على الفرنسيين. . . كانوا يدخلون المساجد، ويدعون الناس إلى الجهاد في سبيل الله، ويحرّمون عليهم التعامل مع الفرنسيين، كما يحرّمون دفع الضرائب لهم، ويعدّون هذا جهاداً في سبيل الله، وهو فعلاً جهاد، وكانوا يعرّفون الجهاد، ويبيّنون فضائله وأجر المجاهدين والشهداء في الدنيا والآخرة، وعندما عاد الشيخ بدر الدين ومن معه من المشايخ إلى دمشق، وقد تهيّأت النفوس للجهاد، أُعلنت الثورة السورية الكبرى ضدّ الفرنسيين، تلك الثورة التي شملت سورية كلَّها.

صادق: الله أكبر. . . الله أكبر. . . تابعْ يا سيِّدي أرجوك.

الشيخ: وكان الشيخ بدر الدين على صلة بالثوار المجاهدين، يراقب تحرّكاتهم وعمليّاتهم في دمشق والغوطة، وكان له من تلاميذه من يقوم بدور الصلة بين الشيخ والمجاهدين.

صادقة: هل تذكر لنا يا جدّي، أسماء بعض أولئك المشايخ المجاهدين؟

الشيخ: أذكر منهم الشيخ محمد الأشمر، والشيخ حسن الخراط، وكانا من زعماء الثورة السورية الكبرى، وكان الشيخ زكي الشوربجي صلة الوصل بين الشيخ والمجاهدين، وعن طريقه كانت تصل إلى المجاهدين لوازمهم من السلاح والعتاد

والمؤن والدواء، كما كان الشيخ محمد ديراني يمدّ المجاهدين بالذخائر والمؤمن ضمن جنازة شكلية، كان يملأ تابوتها بالذخائر والبنادق والقنابل.

صادقة (مقاطعة): عفواً يا جدّي لم أفهم.

الشيخ: كلامي واضح... كان الشيخ محمد ديراني يقوم بعمل جنازة، ولكنَّ التابوت ليس فيه ميت، بل كان فيه الموت للفرنسيين... كان يملأ التابوت بالسلاح والذخيرة، ويحمل الناس الجنازة الشكلية، وأمامها المؤذن، والمشيِّعون وراءها، حتى يصلوا إلى (مخفر الشيخ حسن) فيقوم الضباط والجنود الفرنسيون يؤدّون التحية للجنازة التي تحمل الموت لهم، ولا تحمل ميتاً، حتى إذا ما وصلت (الجنازة) إلى المقبرة، تُفرَّغ الأسلحة والذخائر في القبر، فيأتي المجاهدون في الليل، ويأخذون ما في القبر، لمتابعة جهادهم.

صادقة: الله أكبر... حيلة بارعة من هذا الشيخ الديراني الرائع.

صادق: هل من مزيد يا جدّي الشيخ؟

الشيخ: عندي الكثير، فماذا أذكر لكم وماذا أدع؟

احفظوا هذه الأسماء: الشيخ محمد حجازي زعيم عُصْبة قبر عاتكة وباب سريجة بدمشق، والشيخ نجيب كيوان الذي كان يمزج دروسه في المسجد الأموي بحضّه على الجهاد ضد الفرنسيين، والتبرع للمجاهدين. والشيخ موسى الطويل الذي عاش غنيّاً ومات فقيراً لإنفاقه ماله على المجاهدين، والشيخ صلاح الزعيم والشيخ حمدي الجويجاتي، والشيخ عبده البيتموني، والشيخ محمد البيتموني والشيخ سعدي التغلبي، والشيخ عبد الله الأفغاني، والشيخ محمد الفحل الذي استشهد في معركة (عقربا) والشيخ محمد شويلح الذي استشهد في الغوطة التي استشهد فيها الشيخ محمد خير غزال، والشيخ أحمد الخيّاط، والشيخ عزّ الدين الحلاّق، والشيخ حمدي السمّان، والشيخ صبري المليحاوي، والشيخ ضاهر حمايل، والشيخ مصطفى سيف، وسواهم من المشايخ الذين جاهدوا بأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله، وأغفلهم المؤرّخون، ولكنّ ملائكة الرحمن تحتضنهم في الفردوس الأعلى.

صادقة: يا ويل مزّيفي التاريخ من عذاب الله.

صادق: والشيخ علي الدقر يا سيِّدي؟

الشيخ: كان دوره لا يقلّ عن دور الشيخ الجليل بدر الدين... لما كان للشيخ علي من صِلات في دمشق وغوطتها، وفي حوران وقراها... كان كثير من تلاميذه المشايخ من قرى حوران والغوطة، وكان الشيخ علي كالشيخ بدر الدين في إخلاصه لله ثم لأبناء أمّته، ولوطنه وأرضه التي روّاها الأجداد الفاتحون بدمائهم... دماؤهم كانت الثمن، وهذا الثمن باهظ جدّاً. ولكنهم استرخصوه في سبيل تعريب هذه البلاد وأَسْلَمَتِها.

صادق: ذكروا في كتاب التاريخ، الشيخ محمد الأشمر، فما رأيك فيه يا سيِّدي؟

الشيخ: وماذا سيكون رأيي بشيخ مجاهد قاتل الفرنسيين في الشام والغوطة، وحاول مع الشيخ أبـي الهدى العاني اقتحام (قصر العظم) في الشام، لقتل المفوّض السامي الفرنسي (ساراي)... الشيخ الأشمر مجاهد وشجاع.

صادقة: ولكنْ... ألا ترى، يا جدّي المجاهد، أن جهاد العلماء كان علىٰ حساب العلم والكتابة والتأليف؟

الشيخ: وماذا تفيد الكتابة والتأليف، إذا كانت الأرض محتلّة، والشعوب مستذلّة، والاستعمار الكافر يعيث في البلاد فساداً، وفي الشعوب إفساداً؟

أنا ــ مثلاً ــ أَلفتُ كتاباً مع الشيخ المجاهد كامل القصاب، ثم رأينا الجهاد فرض عين علينا نحن العلماء، بعد الاحتلال واغتصاب البلاد، ولذا انصرفنا معاً عن الكتابة والتأليف، إلى الجهاد في سبيل الله.

صادقة: إذنْ... دعنا ننصرف إلى الحديث عن جهادك المبرور يا سيِّدي وجدِّي المجاهد.

الشيخ: لماذا لا أحدّثكم عن جهاد العلماء في فلسطين ومصر وليبيا والمغرب والجزائر وتونس والعراق والهند وفي سائر بلاد المسلمين؟

صادق: إذا اتّسع الوقت فسوف نرجو منك أن تحدّثنا عنهم يا سيِّدي، أمّا الآن، فحدّثنا عن جهادك يا سيِّدي.

الشيخ: سأحدّثكم إن شاء الله، وأرجو من الله المغفرة إنْ أنا زدتُ أو نقصتُ شيئاً.

وأغمضَ الشيخ عينيه في شبه إغفاءة يسيرة، ثم نَفَضَ رأسَه وقال:

ـ في عام ١٩١١ حاصرت إيطاليا طرابلس الغرب، فأسرعتُ إلى المسجد الذي أخطب فيه.

ـ مسجد المنصوري يا جدّي؟

ـ أجلْ... أسرعتُ إلى المسجد المنصوري في جبلة، وأمرتُ المؤذِّن أن ينادي فوق المئذنة: الصلاة جامعة... الصلاة جامعة... فأسرع الناس إلى المسجد، وصعدت المنبر، وخطبتُ فيهم، وأخبرتهم بمحاصرة الطليان لطرابلس الغرب، وقلت لهم: إن الطليان جاؤوا لاحتلال ليبيا، واستعمار الشعب العربيّ المسلم فيها، وانتهاب خيراتها، وطلبت منهم أن يبادروا إلى التطوع لقتال المستعمرين الإيطاليين، وأخبرتهم أني سأكون أول المتطوعين للجهاد في سبيل الله، فَعَلَتِ الهتافات في المسجد، وخرجنا في مظاهرة صاخبة جابت شوارع جبلة وأزقّتها، ثم سجّلتُ أسماء المتطوِّعين، فكانوا مئتين وخمسين متطوعاً، وطلبتُ من أبناء جبلة أن يتبرعوا لهؤلاء المجاهدين ولأسرهم، فانهالت علينا التبرعات من النساء والرجال والأطفال، واتصلتُ بالمسؤولين في اللاذقيّة، وأعلمتهُم بأننا نريد السفر إلى ليبيا لقتال الغزاة المستعمرين، فطلبوا منا أن نذهب إلى ميناء الإسكندرونة، ليرسلوا إلينا سفينة تحملنا إلى ليبيا.

صادق: وسافرتم؟

الشيخ: تجهّزنا وسافرنا إلى الإسكندرونة، وبقينا ننتظر السفينة أربعين يوماً،

ونحن نتصل بالمسؤولين، ولكنّ حكام الدولة العثمانية كانوا من القوميين الطورانيين، ومن يهود الدونمة والماسونيين، وكان هؤلاء قد شكّلوا حزباً خبيثاً أسموه: (جمعية الاتحاد والترقي) وهذه الجمعية إنما أُسِّست لمحاربة الإسلام والمسلمين، ولذلك ماطلونا، ثم أمرونا بالعودة إلى جبلة، ومنعونا من نجدة إخواننا في ليبيا.

صادق: لماذا يا سيِّدي؟ ألم تكن ليبيا من ضمن البلاد التابعة للدولة العثمانية.

الشيخ: بلى... كانت ليبيا وسائر الدول العربية في المغرب والمشرق من ضمن البلاد التي تتشكّل منها الدولة العثمانية، ولكن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لا يريدون للمسلمين دولة تجمعهم، ولذلك اضطهدوا الشعوب المسلمة التابعة لهم، وفرضوا عليهم سياسة التتريك، ونادَوْا بالقومية التركية أو الطورانية، ليفسدوا ما بين المسلمين الذين كانت تجمعهم أخوّة الإسلام، ومبادىء هذا الدين العظيم، ولهذا ثارت الشعوب غير التركية عليهم، ونادى بعض المثقفين العرب العَلْمانيين بالقومية العربية، وكان ما كان من ظلم وثورات ومؤامرات على دولة الخلافة، من الداخل ومن الخارج، إلى أن استطاعوا تمزيقها وإسقاطها وإلغاءها... كلُّ هذا كان بمكر اليهود الذين كانوا يسيطرون على جمعية الاتحاد والترقي، ويرسمون لها سياساتها، حتى بلغوا ما توعّدوا به السلطان عبد الحميد رحمه الله، فخلعوه ومكّنوا لأعدائه، ثم سلخوا تركيا من الجسم الإسلامي، وجعلوها دولة علمانية معادية للإسلام والعرب والمسلمين، وألغوا الحروف العربية، واستبدلوا بها الحروف اللاتينية، بل بلغ بهم اللّؤم والكفر أن يلغوا الأذان باللغة العربية، وترجموه ترجمة قبيحة ركيكة إلى اللغة التركية.

صادقة: والمسلمون؟ أين المسلمون الأتراك يا جدّي؟

الشيخ: كانوا مغلوبين على أمرهم... ثار بعض العلماء كالشيخ سعيد النُّورسيّ، فنكّل بهم اليهود والعَلْمانيون، فهرب عدد كبير منهم إلى سورية ومصر وسواهما من بلاد المسلمين، كشيخ الإسلام العظيم مصطفى صبري وغيره.

صادق: أريد أن أبشّرك، يا سيِّدي، بأن تركيا في طريقها إلى الإسلام، برغم كلِّ المؤامرات، وقد أعيد الأذان باللغة العربية، أمر بذلك رئيس وزراء تركيا الشهيد عدنان مندريس، كما أمر وسمح بفتح عشرات المدارس الشرعية في تركيا، والآن، يقول الناس: المستقبل للإسلام في تركيا، رغم أنوف اليهود والصليبيين والعَلْمانيين الحاقدين على العروبة والإسلام.

الشيخ: الحمد لله... الحمد لله... بشَّرك الله بالخير يا ولدي.

صادقة: ماذا فعلتم بعد أن عدتم من الإسكندرونة يا جدّي؟

الشيخ: عدنا والحزن يملأ قلوبنا، والحقد المقدّس يترسَّخ في نفوسنا على اليهود ومن يسير في ركابهم..

صادقة: وهل أعدتم الأموال إلى أصحابها الذين تبرّعوا بها؟

الشيخ: خيَّرتهم بين إعادتها إليهم، وإبقائها مع لجنة أمينة لبناء مدرسة، وتعليم أبنائهم وشبَّانهم، فاختاروا الثانية، فبنينا مدرسة كانت خيراً وبركة وموئلاً للأحرار المجاهدين، ومنطلقاً لهم.

صادق: كيف؟

الشيخ: بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وتقسيم البلاد العربية إلى دويلات حسب اتفاقيات سايكس وبيكو، واقتسامها بين الدول الاستعمارية، غزت فرنسا الساحل السوري عام ١٩١٩ فما كان مني إلا أن أثور، وإلا أن أحمّس الرجال للدفاع عن أرضهم وأعراضهم ودينهم ووطنهم، وتدفّق المتطوّعون، وكان أكثرهم بلا سلاح، عندئذ قررت بيع البيت الذي أسكنه، واشتريت بثمنه أربعاً وعشرين بندقية، وخرجتُ بأهلي إلى (الحفّة) التي كانت طوال فترة الاستعمار الفرنسي، معقلاً من معاقل الثوار المجاهدين الذين التحقوا بي وبالمجاهد عمر البيطار، وطفتُ القرى أخطب وأحمّس وأدرّب المجاهدين، وقمنا بالعديد من العمليّات العسكرية، وذاعت أخبار عملياتنا في سائر المدن والقرى السورية، فتشجّع الناس، وصاروا يتهيّؤون ويستعدّون للثورة على

الفرنسيين، ولكن الفرنسيين استطاعوا بما أُوتوا من وحشية وهمجية وأحقاد صليبية، أن يبطشوا بالمجاهدين، ويشنّوا الحملات الكبيرة علينا، حتى ضعف عدد من الثوار، وتفرّقوا في البلاد السوريّة، ومنهم من لجأ إلى تركيا، وأقام المجلسُ الحربيّ الفرنسيُّ عدّة محاكم، حكمتْ على كثير من المجاهدين بالإعدام، وكنتُ فيمن حكمتْ عليه المحكمة بالإعدام.

صادق: هل خفتَ من هذا الحكم القاسي يا سيِّدي؟

الشيخ: المسلم لا يخشى إلا الله... والأعمار بيد الله، لا تتقدم ولا تتأخر... ومع ذلك سافرتُ إلى دمشق أيام الحكم الفيصلي، وحاول بعض الأصدقاء التوسط لي لدى الفرنسيين فأبيت وساطتهم، وحاول الفرنسيون إغرائي بالمال والمنصب فرفَضْتُ، ثم غادرتُ إلى بيروت، ومنها إلى حيفا، لأبدأ مرحلة جديدة من الكفاح الدامي ضدّ أعداء الله والعرب والإسلام والمسلمين: الإنكليز واليهود الأنذال.

صادقة: هل علم الإنكليز بقدومك يا سيّدي الجدّ المجاهد، إلى حيفا؟

الشيخ: نعمْ عرفوا... وقبلوا بـي، لخلافات كانت بينهم وبين فرنسا.

صادق: متى سافرتَ إلى فلسطين يا سيِّدي؟

الشيخ: أواخر عام ١٩٢٠.

صادقة: ومعك أسرتك؟

الشيخ: كان معي إخواني، أو بعض إخواني الذين لازموني طوال حياتي، وكانوا ألصقَ بـي من أسرتي... من زوجتي وأولادي.

صادقة: اسمح لي أن أسألك عن أولادك قبل أن أسألك عن إخوانك يا سيِّدي.

الشيخ: أول مولود لي كان بنتاً رائعة حفظت القرآن وهي بنت ستّ سنين، وأذكر لكم في هذه المناسبة، أنني طرتُ فرحاً بحفظها القرآن العظيم في هذه السِّنِّ المبكِّرة، فأقمتُ لها حفلة بهذه المناسبة، دعوت إليها إخواني وبعض وجهاء بلدة جبلة، وسمعتُ همساً من بعضهم يشكِّك في حفظ البنت، فقمتُ وتحدّثتُ ودعوتُ البنت واسمها ميمنة، وطلبت من الحاضرين أن يمتحنوها، وفعلاً وجهوا

إليها عدة أسئلة، وكانت تجيب بكل جرأة وتمكُّن ولله الحمد.

صادقة: ما شاء الله. . . متى كان هذا يا جدّي؟

الشيخ: ميمنة ولدت عام ١٩١١. . . يعني كانت الحفلة عام ١٩١٦ ـ ١٩١٧ تقريباً.

كان في نفسي سؤال حول ليبيا، وكنت أتردد في سؤال الشيخ، لأنه تجاوزه في حديثه. ولكن الشيخ الذكّي رآني أَحُوصُ، فسألني:

ـ ما لك يا بنيّ؟ هل أنت متضايق من شيء؟

فقلت على استحياء:

ـ لديّ سؤال.

ـ سل ما بدا لك.

قلت:

ـ هل احتلّت إيطاليا ليبيا يا سيِّدي؟

فزفر الشيخ زفرة حرَّى، وقال:

ـ أجلْ يا صادق. . . احتلّ الإيطاليون ليبيا بعد حصار عنيف، صحبَه قتلٌ وتدمير.

ـ ألم يقاومهم الشعب الليبيّ؟

ـ بلى قاومهم. . . سار الشعب خلف علمائه، كالشيخ السنوسي والشيخ المجاهد البطل عمر المختار. . . رحم الله المجاهدين جميعاً.

صادق: نعود إلى سفرك إلى أمِّ مواجعنا وأحزاننا. . . إلى فلسطين الأسيرة.

الشيخ: سوف تفكُّون إسارها بعون الله تعالى، إذا صدقتْ منكم النيّات والعَزَمات.

صادقة: لماذا هاجرت إلى فلسطين يا جدّي؟

الشيخ: الجواب ذو شقين. . .

أولاً: لماذا غادرتُ سورية؟

والجواب كما ذكرتُ قبل قليل... كثافة الحملات الفرنسية علينا في الجبال، وتوزُّع المجاهدين، وهزيمةُ دولة الخلافة، ثم سقوط الدولة التي شكّلها أو أنشأها شريف مكة، وأقام ابنه فيصلاً ملكاً عليها، ثم طردُ الملك فيصل إلى العراق، والاحتلالُ الفرنسيّ لدمشق ولسورية الداخلية، حيث عمّت الفوضى والظلم والطغيان.

صادقة: ثانياً؟

الشيخ: ثانياً: فلسطين أرض مقدّسة، فتحها أجدادنا العظام: عمرو بن العاص، وأبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن الوليد، وغيرهم من أبطال الصحابة الكرام، وجاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وفتح القدس، وجاء من بعده البطل العظيم صلاح الدين وحرّر القدس وفلسطين وسائر بلاد الشام من حُكم الصَّليبيّين، واليوم يتآمر عليها الإنكليز واليهود وأكثر الدول الأروبية وأمريكا... وانفضح سرُّ وعد بلفور كما انفضح سر اتفاقيات سايكس وبيكو، وبلاد المسلمين واحدة، والجهاد في فلسطين لتحريرها من الاستعمار الإنكليزي وربائبه بني صهيون، فرضٌ على كل مسلم، ولهذا قررنا الجهاد في فلسطين الحبيبة، واتخذنا من حيفا مقراً لنا، وقلت لإخواني الذين هاجروا معي:

«كما كنَّا نقاتل الفرنسيين المستعمرين في غابات الفُرُلّق وصُلُنْفَة وجبل صهيون وجبال النصيرية، سوف نقاتل الإنكليز في جبال نابلس وجنين، وفي كل الجبال والأودية والقرى والمدن الفلسطينية، وربما كان أجرُنا على جهادنا هنا، كأجرنا على جهادنا في سورية بل أعظم.

صادق: كيف استطعتم الرحيل إلى بلد لا تعرفون عنه شيئاً؟

الشيخ: لقد هيّأ الله لنا المجاهد الشيخ كامل القصاب رحمه الله رحمة واسعة، وكان من علماء دمشق الأبرار، ومن الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في ميسلون وغير ميسلون... الشيخ كامل هو الذي رتّب أمر السفر إلى دمشق، وإلى بيروت، ثم إلى حيفا.

صادقة: من سافر معك من إخوانك يا جدّي؟

الشيخ: سافر معي رفاق الدرب الطويل، المجاهدون: الشيخ محمد الحنفي، والشيخ علي الحاج عبيد، وأحمد إدريس، والحاج خالد، وظافر القسّام، وعبد المالك القسّام... مشينا معاً من جسر الشغور إلى بيروت على الأقدام، ونحن متنكّرون، كما علّمنا الشيخ القصّاب.

صادقة: وأسرتُك؟

الشيخ: بقيتْ في الحفّة، ثم لحقت بنا فيما بعد.

صادق: وبقي معك إخوانك هؤلاء حتى النهاية يا سيّدي؟

الشيخ: عاد الحاج خالد إلى سورية، ولم يسمع نُصْحَنا له بعدم السفر، لأنه ضاق بحياة الفقر التي كنا نعيشها، فقرر الذهاب إلى بلده في جبل صهيون، ليرسل إلينا الأموال التي تدعم حركتنا الجهادية.

صادق: وهل علم الفرنسيون بعودته؟

الشيخ: وألقوا القبض عليه وهو في أطراف بلدة جبلة، وأعدمه الفرنسيون بوحشية عُرفوا بها في كل الدول التي استعمروها... جمعوا أهل القرى، وسكبوا الكاز على الحاج خالد، وأحرقوه حيّاً أمامهم.

كاد يغمى عليّ وعلى صادقة التي صرخت:

ــ وحوش... وحوش... أوحش من الوحوش.

وحاول الشيخ تهدئتها، ولكنّها انخرطت في بكاء مرير، لم أستطع إلا مشاركتها فيه، ولمّا مسحتُ دموعي، ونظرت إلى الشيخ، كان الشيخ يعصر عينيه، وكانت دمعات حزينة، قد تخلّلتْ لحيته اللطيفة.

تذكرتُ فيلم (عمر المختار) والجرائم التي ارتكبها الطليان بالشعب الليبيّ، وتذكرتُ ما فعله الفرنسيون في الجزائر ومصر والمغرب، وأيقنتُ أنَّ ملّة الكفر واحدة، وأن أولئك الصَّليبيين يتوارثون الجرائم والأحقاد، فصعَّدتُ بعض الحسرات المحرقات وقلت:

ـ يا حسرة على العباد!.

يا حسرة على المسلمين الذين ما زالوا يأملون خيراً في نسل أولئك الأوغاد، برغم كلّ الجرائم التي ارتكبوها بحق المسلمين في بلاد القوقاز والبلقان، وفي كل بلد يشهد بشهادة الحقّ، ويدين بالإسلام... تذكرت روسيا الصليبية، وروسيا الشيوعية، وروسيا الديمقراطية، وهي تشنّ حملات إبادة على المسلمين، وتذكرتُ تأييد أوروبا وأمريكا لصرب البلقان المتوحّشين، ثم قلت:

ـ لو عَرَفْتَ، يا سيِّدي، ما يفعله حفدة أولئك الأوباش بالمسلمين في هذه الأيام.

رفع الشيخ وجهه إلى السماء، وشَخَصَ ببصره، ثم أراح لحيته على صدره، وأغمض عينيه ثم صار يرتجف وكأننا في زمهرير الكوانين، ولسنا في عزّ الصيف، فأسرعت إليه ألفُّه باللحاف، وأقبِّل رأسه، وأقول له:

ـ ما لك يا سيِّدي الشيخ؟ هل أستدعي لك الطبيب يا سيِّدي؟

ثم التفتُّ إلى أختي صادقة، وإذا هي غارقة في صمت حزين، عندئذ قررتُ الذهاب إلى الغرفة الأخرى لاستدعاء الطبيب، لكنَّ الشيخ أفاق من غَشْيَتِهِ وقال:

ـ لا عليك يا بُنَيَّ، فأنا كلَّما تذكرتُ الرجلَ الشَّهْمَ الحاج خالداً، وما فعله الفرنسيون، أكاد أفقد وعيـي، ويصيبني ما ترى.

ثم صرخ الشيخ:

ـ يا ويل الظالمين من حساب يوم عسير.

وأردت تخفيف الوطأة عن الشيخ المجاهد الشهيد، فسألتُه:

ـ لماذا اخترتَ حيفا يا سيِّدي من بين المدن الفلسطينية؟

فاعتدل الشيخ في جلسته، واستعاد هدوءه، ثم أجاب:

ـ أنا لم اخترها... الذي اختارها لنا هو الشيخ كامل القصاب.

صادق: هل لاختياره هذا سبب وجيه يا سيِّدي؟

الشيخ: هذا ما لا شك فيه، فالشيخ كامل كان عالماً مجاهداً مقاتلاً، وكان تاجراً يجوب البلاد، وله أصدقاء كثر، وله خبرة واسعة بأمور الدعوة والجهاد والسياسة، وقد عرفنا منه أنه اختارها لنا، لأننا نستطيع أن نعمل فيها مع العمال الذين قدموا إليها ليعملوا مع الإنكليز... أولئك العمال البسطاء كان فيهم خير كثير، واستطعنا كسب الكثيرين منهم بعون الله... وهناك سبب ثان، وهو أن مدينة حيفا كانت قاعدة من قواعد التهويد، كما هي قاعدة مهمة للإنكليز وجيشهم وأسطولهم، وفيها أهم ثكناتهم ومستودعاتهم المليئة بالأسلحة والذخائر. وهذا يعني أن العمال العرب القادمين من الأرياف، ومن سورية ولبنان والأردن ومصر والعراق، يمكن أن يقعوا فرائس سهلة في أيدي اليهود والإنكليز... اليهود بأساليبهم وأدواتهم الخبيثة، والإنكليز بمكرهم ودهائهم...

وسكت الشيخ عزّ الدين لحظات ثم قال:

ـ أعتقد أن اختيار مدينة حيفا مقاماً لنا، كان لهذه الأسباب.

سألت الشيخ المجاهد:

ـ هل كان يأتي العمال العرب إلى فلسطين في تلك الأيام؟

أجاب الشيخ:

ـ كانت الدعايات المسمومة تزعم للعمال العرب، أن اليهود والإنكليز، أو أن فلسطين في حاجة إلى الأيدي العاملة، وأنَّ الأجور التي تُدفع للعمال أضعاف الأجور التي يأخذونها في أوطانهم، إلى جانب البطالة التي كانت تخيِّم على الوطن العربي والعالم الإسلامي بأسره، يؤازرها جهلٌ وأمِّيَّة وتخلُّف، وكانت حيفا ميناء مهمّاً في فلسطين، ترسو فيه السفن القادمة من أنحاء العالم، وكانت حيفا تتصل ـ عن طريق البحر ـ بعدد من المدن السورية واللبنانية والفلسطينية، كما كان الخطّ الحديديّ الحجازيّ يربطها بالمدن الفلسطينية ودمشق... كلُّ هذا سهَّل هجرات العمال والفلاحين إليها، ليعملوا في شركات التبغ والتنباك، وسكّة

الحديد، وفي الميناء، وفي التجارة وسواها من الأعمال.

وسألتْ صادقة:

ــ وهل كان العمل مع أولئك العمال سهلاً يا جدّي؟

ــ في منتهى السهولة... كان في حيفا أكثر من عشرة آلاف فقير، كانوا يعيشون في بيوت من الصفيح، بعد أن سُلبتْ منهم قراهم ومزارعهم في مرج ابن عامر بصورة خاصة، وكنت أزور أولئك البائسين، وأسهر معهم، وآكل من طعامهم، وأحدّثهم في شؤونهم الخاصة، وأفتح عقولهم وأذهانهم إلى المؤامرات التي يبيّتها لهم وللشعب الفلسطيني أولئك الغزاة الإنكليز واليهود، وأساعدهم في تحسين أحوالهم المعيشية، وأحذّرهم من أحابيل الإنكليز ومن دنس اليهود الذين كانوا يسلّطون بناتهم على أولئك الجهلة المساكين، وكنت أوفّق بينهم، وأعمل على تزويج بعضهم من بعض، وأعقد لهم القِران، وأحضر العرس، أحضر أفراحهم، وأشارك في مآتمهم، وأخفّف عنهم مصائبهم والتعاسة التي يعيشون في ساحتها، وأغرس في نفوسهم معاني العزّة والكرامة، وكانوا يسألونني عن أمور دينهم، خاصة أولئك الذين كانوا يصلّون في مسجدي، أو يتعلمون في المدرسة التي أنشأتها لتعليم الأمّيّين من الصغار والكبار.

فقالت صادقة:

ــ ما هذا يا جدّي العظيم؟ معنى هذا أنك تعبتَ جداً معهم... أرهقتَ نفسك، ونسيتَ الراحة والبيت والأهل.

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ثم قال:

ــ احسبوا يا أولاد ما بذلتُه أنا من وقت وجهد، وقيسوه بما بذله رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مكّة والمدينة، ومع البدو والأعراب، ثم احكموا إن كنتُ فعلتُ شيئاً ذا بال، قياساً بما فعله النبيّ القدوة، وأصحابه الكرام، والقادة والمصلحون الصالحون على مدى الأزمان.

ثمَّ... إن الذي يريد أن يتصدّى للعمل العام... للجهاد في سبيل الله...

لإرشاد الناس. . . ينبغي أن يكون مثالاً يُحتذى في البذل والعطاء، لا يبخل بوقت ولا بجهد ولا بمال ولا بعلم في سبيل هداية الناس، وكسبهم إلى صفّه. .

ونفث الشيخ زفرة كانت تملأ صدره ثم قال:

ـ انظروا إلى أعدائنا. . . إلى الإنكليز واليهود وسواهم من الأعداء. . . إنَّهم يعملون في الليل والنهار، يبذلون كلّ ما عندهم من طاقات في سبيل الوصول إلى ما يريدون. . . بذل اليهود مئات الملايين بل آلاف الملايين من الليرات الذهبيّة في سبيل قضيّتهم، ومن أجل تحقيق حلمهم في إقامة دولة ووطن قوميّ ودينيّ لهم على أرض فلسطين. . . اشتروا آلاف الذمم من السياسيين والمثقفين والعسكريّين والصَّحفيين والكتّاب لمناصرة قضيّتهم هذه. . . بذلوا أموالهم وأوقاتهم ونساءهم وكلَّ شيء من أجل الوصول إلى الهدف الذي طالما حلموا به. . . ثم انظروا إلى المبشِّرين الصليبيين، وكيف يجوبون مجاهل إفريقيا وشرق آسيا وسورية ولبنان ومصر والعراق والأردنّ والهند والسند، يعيشون بعيداً عن كنائسهم ومواطنهم من أجل التبشير بدينهم النصراني، والتنفير من الإسلام. . . فتيات صبايا طبيبات وجامعيّات يقمن أيضاً بالتبشير، ويهجرن أوطانهنّ، ويعاشرن من هبَّ ودبَّ في سبيل كسبه إلى كنائسهنَّ. ونحن المسلمين، لا نبذل إلا النزر اليسير من الجهد والمال والوقت، ثم نريد ونطلب من الله أن ينصرنا على عدوّنا. . . وهذا لن يكون، فما ينبغي للكسالى والعجزة والمتواكلين والبخلاء أن ينتصروا. . . لا بد من التضحية. لا بد. . . لا بد. . . حتى ننتصر على أعدائنا، فنحن والعدو في سباق، والنصر يتنزَّل على رجاله المستحقين له. . . ولهذا كنت أعمل. . . كنتُ أسهر. . . كنت أسعى إلى أولئك العمَّال البائسين، وقد أفلح سعيي وسعي إخواني، وأبطلنا كيد اليهود ومكر الإنكليز، وأنقذنا الآلاف من براثنهم.

صادق: وكذلك كان يفعل الإمام الشهيد حسن البنا في مدينة الإسماعيلية بمصر. . . كان يرتاد أماكن العمال الذين يعملون في الميناء وفي الثكنات الإنكليزية، يزورهم في بيوتهم المتواضعة، ويحلّ لهم مشكلاتهم، بل إنه كان

يذهب إلى المقاهي وأماكن اللهو الأخرى، فيخطب في الناس، ويجلس معهم، ويدعوهم إلى الالتحاق بركب الدعوة، واستطاع أن يكسب الكثيرين منهم، ويجعل منهم دعاة وقادة ومجاهدين.

الشيخ: رحمة الله على حسن البنا، فقد كان من سادة الدعاة، وكانت أخباره تصل إلينا، فنتعلّم منها الكثير... لقد عرف وعرفنا أنَّ الفقراء كانوا دائماً يشكّلون السَّواد الأعظم من أتباع الرسل والمصلحين، لأنَّ في نفوسهم كنوزاً من الخير، وطاقات تحتاج إلى من يفجِّرها... إلى من يعرف كيف يستخرجها ويوظِّفها...

صادقة: كيف كانت حياتك الجديدة في حيفا يا جدّي؟

الشيخ: تعرّفنا إلى أهل حيفا الأصلاء، وتعرّفوا إلينا، فأقبلوا علينا بحبّ، واحتفَوا بنا أيَّما احتفاء، وحاولوا تقديم المساعدة لنا، ولكننا شكرناهم، وأبينا قبول أيّ هدية، واستأجرنا بيتاً في حارة متواضعة... بيتاً من الصفيح يزيد البردَ برودة في الشتاء، كما يزيد الحرّ حرارة في الصيف، وكان إخواني يعملون في الميناء وبأيّ عمل شريف، وكنت أعلِّم الصغار في النهار، ثم أعود إلى البيت، لأطهو الطعام لإخواني... وهكذا كنا نعيش.

الشيخ: وأسرتكم يا جدّي؟

الشيخ: ما دمتِ ــ يا ابنتي ــ تركّزين على أسرتي، وتسألينني عنها مرَّة تِلْو مرة، فاعلمي أنَّ أحد إخواني السوريين جاءني بها... نقل زوجتي وأولادي سائق من بيروت، أدخل أسماءهم في جواز سفره، وأحضرهم إليّ في حيفا، كما أحضر أسر إخواني، وعاشت عائلاتنا جميعها في بيت واحد، وعشنا معاً أسرة واحدة.

صادق: لماذا لم تستأجروا لكل أسرة بيتاً يا سيِّدي؟

الشيخ: لأننا لا نملك ما نستأجر به أكثر من بيت واحد يا صادق.

صادق: هل كان في فلسطين يهود كُثُرٌ يا سيِّدي؟

الشيخ: كانوا أقليّة يا صادق... عندما دخلتُ سورية الجنوبية، أي

فلسطين، كانوا أقلّ من خمسين ألف يهودي، في حين كان العرب حوالي مليون، ولكن السياسة الإنكليزية الخرقاء سمحت لليهود بالهجرة إلى فلسطين، ليقيموا عليها دولة، ولينشئوا وطناً مغتصباً، فازدادت أعدادهم، وصاروا يشترون الأراضي من بعض العائلات العربية الخائنة، كما استولوا على كثير من أراضي أملاك الدولة، وأقاموا مستعمراتهم عليها بمساعدة الإنكليز، وتحت إشرافهم، كما استولوا على أراضي بعض الفلاحين بالقوة، بمساعدة الإنكليز طبعاً، ولولا عساكر الإنكليز ومدافعهم الرشاشة، ودباباتهم، ما استطاع يهوديٌّ الاستيلاء على قطعة أرض، ولهذا أنا أعتبر الإنكليز العدوّ الأول للعرب والمسلمين ولفلسطين.

صادق: وما زالوا كذلك يا سيِّدي.

الشيخ: ثمّ إن الإنكليز المحتلين كانوا يسلّحون اليهود، ويسمحون لهم باستيراد السلاح من البلدان الأروبية، وكانوا يدرّبون العصابات الصهيونية، ويسمحون لها بالتدرب على القتال في وضح النهار، في الوقت الذي كانت تسجن فيه أي مسلم يحمل أيَّ سلاح.

صادقة: نعود إلى حياتكم الخاصة في حيفا يا جدّي الكريم.

الشيخ: لم تكن لديّ حياة خاصة بـي... ولا ينبغي للداعية أو لصاحب القضية أن تكون له حياة خاصة به... الحياة الخاصة تكون مندمجة في حياة الداعية، ولهذا كانت حياتي كلُّها وَقْفاً على خدمة الإسلام والمسلمين، أعلِّمهم أمور دينهم، وواجباتهم تُجاه أنفسهم وأسرهم، وتُجاه أرضهم وأمّتهم... أعلّمهم القراءة والكتابة، كما أحرّضهم على الإنكليز واليهود، وأدعوهم إلى التعامل مع السلاح، للدفاع عن بيّاراتهم، عن برتقالهم وزيتونهم، عن فلسطين، عن المسجد الأقصى... عن قبّة الصخرة، وكنت أستخلص العقلاء وأصحاب الدين والنخوة والشهامة، لأدرّبهم على استخدام السلاح، وأشحنهم كرهاً للإنكليز، وبغضاً لليهود الطامعين ببلادنا، وأطلب منهم أن يستعدّوا، أن يبيعوا ما عندهم ليشتروا السلاح، فالمعركة كبيرة، وطويلة، والمؤامرة مُحْكَمَة، وأطرافها ظاهرون للعيان،

وهم أقوياء، أغنياء، مسلّحون، مدرَّبون، ويقاتلون من أجل اغتصاب فلسطين، وعلينا أن نواجههم ونجاهدهم بأسلحة الإيمان، والعلم، ثم بالأسلحة التي يستخدمونها في تحقيق مآربهم وأحلامهم.

صادق: والإنكليز واليهود وعملاؤهم يا سيِّدي؟

الشيخ: ما لهم؟!

صادق: ألم ينتبهوا لك؟

الشيخ: في البداية لم ينتبهوا... كنتُ أعمل سرّاً، وكنت أرفع شعار «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» وهذا أمرٌ من الرسول صلّى الله عليه وسلم، وكنت آمُرُ به من أستخلصه لهذه المهمة... أطالبه بالكتمان، وكان أكثر الذين كانوا معي واعين متكتّمين، يعملون في السر، وينتشرون بين العمال والفلاحين، يوضِّحون لهم ما يجب عليهم، وكنت أتّصل بالناس عن طريق المدرسة الإسلامية التي أسستها الجمعية الإسلامية المسؤولة عن إدارة الأوقاف في حيفا وما حولها... استطعت عن طريق هذه المدرسة، الاتصال بأولياء أمور الطلاب، أزورهم في بيوتهم، وأحاورهم فيما يهمُّ أبناءهم، وأتطرق إلى الأحوال العامة في فلسطين، وأشحذ هممهم، وأحمّسهم للوقوف في وجه الغزو الحضاري، والفساد الخلقي، والاستعمار الاستيطاني، والاحتلال العسكري، وكنت ألقى استجابة من الكثيرين.

صادقة: هذا لأنهم قرؤوا الصدق في عينيك، والإخلاص في سائر حركاتك وسكناتك يا سيِّدي ويا جدّي الرائع... صَدَقْتَ اللّهَ فصدقك اللّهُ ووفَّقك وأعانك.

الشيخ: ومما ساعدني في أداء مهمتي الجهادية هذه، أنني عُيِّنْت مأذوناً شرعيّاً، كما كنت خطيب مسجد الاستقلال، ومدرّساً دينيّاً فيه، وهذا كلُّه سَهَّل لي مهمتي.

صادق: يبدو أن موظفي الأمن في دائرة الأوقاف، لم يستطيعوا كشف أمرك يا سيِّدي.

الشيخ: الحقّ أن لمفتي فلسطين المجاهد الحاج أمين الحسيني فضلاً في هذا، هيّأ لي فرصاً رائعة في الاحتكاك بالناس، والتعرّف إليهم.

صادقة: كيف يا جدّي؟ كيف كنتَ تحتكُّ بالناس؟

الشيخ: أولاً: أنا كنت أتعب في التحضير لموضوع خطبة الجمعة، وكان المصلّون يتوافدون إلى مسجد الاستقلال من مختلف أحياء حيفا، ومن القرى القريبة منها لسماع الخطبة التي أنتقي موضوعها جيداً، وأعرضه عرضاً منطقياً مؤثّراً، وأحشد له الأدلّة والبراهين المقنعة.

صادق: لا تؤاخذني، يا سيِّدي، إذا قلت لك: لو أن خطباء الجمعة في العالم يحضّرون لخطبهم كما كنت تحضّر، لكان المنبر أداة توعية عظيمة، كما كان أيام الرسول القائد صلّى الله عليه وسلم، وأيام خلفائه الراشدين رضي الله عنهم... إنَّ أكثر خطباء الجمعة، يا سيِّدي، لا يحضّرون... يصعد الواحد منهم إلى المنبر، ثم يخطب بما يخطر على باله، فلا يكون له موضوع محدّد، إنك تراه يشرّق ويغرّب، ويصرخ حيناً، ويمطّ كلماته حيناً آخر، فلا يكون له أيّ تأثير، حتى صار المصلّون يتأخرون في الحضور، لا يريدون سماع خطبة الجمعة، وإذا حضروا، نام بعضهم، وانشغل بعضهم الآخر بأشياء لا صلة لها بخطبة الجمعة.

الشيخ: التاريخ يعيد نفسه يا ولدي، فكذلك كان أكثر خطبائنا.

صادقة: عن ماذا كنتَ تخطب يا جدّي؟

الشيخ: كنت أخطب عن المشكلات التي يعاني منها المصلّون وأهل حيفا وأهل فلسطين، كنت أحدّثهم عن الوطن وحبّه، وعن المؤامرات التي تحاك له، وعن الهجرة اليهودية، ومخاطر هذه الهجرة التي يقوم الإنكليز بتسهيلها... أحدّثهم عن الظلم الواقع بهم، عن المظالم السياسية، وعن المظالم الاجتماعية... أحدّثهم عن تكريم الله للإنسان، وعن تكريم الإسلام ونبيّ

الإسلام للمسلم... أحدّثهم عن حرمة المسلم... عن حرمة دمه، عن حرمة أرضه، عن حرمة ماله، وأنّ من دافع عن نفسه وعن كرامته، ومن دافع عن عرضه وأرضه، فقُتل، فهو شهيد... كنت أحدّثهم عن الجهاد وفضل الجهاد، وما ينتظر المجاهدين من الأجر والثواب عند الله... وأحدّثهم عن الشهادة في سبيل الله، وعن مكانة الشهيد عند الله والناس، وأمثال هذه الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمامهم، وتلفت انتباههم إلى ما يجري حولهم، وتحرّضهم على رفض الظلم، ورفض الاستعمار، ورفض اليهود، ورفض الذلّ، فالمنيّة ولا الدنيّة، والقبر ولا العيش تحت حراب الأجانب المستعمرين.

صادق: بارك الله فيك يا سيِّدي.

صادقة: وإني أعتقد جازمة أنك ـ يا جدّي الشهيد ـ كنتَ خطيباً عظيماً، قادراً على شدِّ المصلّين إليك بفصاحتك، وحلو منطقك، وبحججك وبراهينك، وبما كنت تستشهد به من آيات الله الكريمات، وأحاديث نبيّه الرائعات، وبأحداث التاريخ، من السيرة النبوية، إلى سير عظماء المسلمين.

الشيخ: أرجو أن أكون قمتُ بواجبي.

صادق: هذا أولاً يا سيِّدي... وثانياً؟

الشيخ: ثانياً: كنتُ في تدريسي في المسجد بعد الصلوات، أفصّل ما قد كنت أُجْمِلُه في خطب الجمعة... كنت أصرحَ مني في خطب الجمعة... كان المسجد يمتلىء بالمصلين، يصلون السنَّة، ثم يجلسون للدرس... ويكون في تلك الدروس الشرعية أسئلة شرعية، وأسئلة سياسية، وكنت آخذ فرصتي في الشرح والتعليل والتفسير ودقّ أجراس الخطر، وكانت الاستجابة كما كنت أتوقَّع ولله الحمد.

صادق: ولله الحمد والفضل والمنّة... وثالثاً؟

الشيخ: وثالثاً: كنت أزورُ البيوت والأحياء والقرى، لعقد عقود الزواج... كنت أعقد العقد، وأحضر الفرح، وأشارك في الولائم، وكنت أهتبلُها فرصةً

للحديث بما يعتمل في صدري، ويجول في عقلي وخاطري، وإذا تأخرت في الحديث، بادرني الناس المحبّون، يسألونني الحديث، فأحدِّثهم.

صادق: هل كنت تطيل خطبك وأحاديثك يا سيِّدي؟

الشيخ: معاذ الله أن أفعل... إذن لانفضّ الناس عني وعن خطبي ودروسي... كنت أركّز الحديث، وأجعله يتناسب وحال السامعين، ولا أطيل أبداً.

صادق: وبذلك كَسَبْت قلوب الناس يا سيِّدي.

صادقة: ثمّ ماذا يا جدّي؟

الشيخ: وكان مما ساعدني على الاتصال بالناس، انتسابي إلى جمعية الشبان المسلمين، ثم أَصرّ عليّ الأعضاء لأستلم رئاسة الجمعية.

صادق: واستلمتَها يا سيِّدي؟

الشيخ: ليس حبّاً بالمظاهر والمناصب، فقد كنت أزهد الناس بالمناصب وما يصحبها من مظاهر فارغة، ولطالما رثيت للمشايخ الذين كانوا يتسابقون لحضور الحفلات والمؤتمرات، والظهور فيها، لتكتب عنهم الصحافة، لتذكر أسماءهم، مجرد ذكر... كنتُ أهرب من هذه المظاهر الفارغة التي تقتل الوقت والكرامة معاً.

صادق: إذن... لماذا قبلتَها يا سيِّدي؟

الشيخ: لأتمكّن من خلالها أن أتصل بالناس... كنت أخطب فيها، وأحدّث الأعضاء، وأناقشهم، كما كنت أخرج إلى القرى لافتتاح فروع لها، وبهذا استطعت التعرف على أحوال الناس، وعلى مشكلاتهم، وعلى معادنهم، فتوطّدت علاقتي بالناس، وكَسَبْتُ ثقتهم، كما ربحتُ أولادهم.

صادقة: أنا أرغب في سماع فِقْرَةٍ أو أكثر من خطبك يا جدّي.

الشيخ: كما تحبّان.

ولملم الشيخ أطراف جُبَّته، ثم مسح العرق من على جبهته العريضة الناصعة، بمنديل أبيض ناصع البياض نظيف، ثم قال:

ـــ بعد أن حكم الإنكليز على المجاهدين الثلاثة بالإعدام، لم أتمالك نفسي، فقلتُ في خطبة لي بهذه المناسبة:

«يا أهل حيفا... يا مسلمون... ألاتعرفون فؤاد حجازي؟

ألم يكن فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم إخوانكم؟

ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال.

إنهم الآن على أبواب المشانق... حكم عليهم الإنكليز بالإعدام من أجل اليهود.

أيها المؤمنون... أين نخوتكم؟ أين إيمانكم؟ أين هي مروءتكم».

فهتفتُ وصادقة:

ـــ الله أكبر... الله أكبر...

قال الشيخ:

ـــ وكذلك كان المصلّون يهتفون ويكبّرون.

وسألتُ سيّدي الشيخ المجاهد عن هؤلاء الثلاثة الذين حكم عليهم الإنكليز بالإعدام، فأجاب:

ـــ على أثر ثورة البراق عام ١٩٢٩ في فلسطين، تلك الثورة التي عمّت المدن الفلسطينية كافة، وحصلت اشتباكات وصدامات مسلّحة بين المسلمين من جهة، واليهود والإنكليز من جهة أخرى، وكانت حصيلة تلك الثورة التي انتهت في الثلاثين من آب عام ١٩٣٠، مَقْتَل ١٣٣ يهودياً، وجرح ٣٣٩ يهودياً، واستشهاد ١١٦ فلسطينياً، وجرح ٢٣٢ ـــ أقول: إثر ذلك، قامت قوات الاحتلال الإنكليزي باعتقال أكثر من ألف شخص، وشكّلت لهم محكمة أصدرت ٧٩٢ حكماً ضد العرب، منها خمسة أحكام بالإعدام، ونفذ الإنكليز حكم الإعدام بهؤلاء الأبطال الثلاثة: فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم، وثلاثتهم من تلاميذي روّاد

مسجد الاستقلال. وفؤاد حجازي، هو صاحب الأنشودة التي سارت على كل لسان في بلاد الشام، ومنها:

يـــا ظـــلام السِّجـــن خيِّـــم إننـــا نهـــوى الظـــلامـــا

لـيـــس بعـــد السجـــن إلا فجـــرُ بـــدرٍ يتســـامـــى

وطلبنا من سيِّدي الشيخ إعادة البيتين حتى حفظناهما.

ثم طلبتْ صادقة من الشيخ أنْ يذكر لنا فقرة أخرى من خطبه النارية فقال، والغضب آخذٌ منه كلَّ مأخذ:

ـ خطبتُ مرة في جامع الاستقلال خطبة عنيفة، محذِّراً من مطامع اليهود والإنكليز، أذكر منها:

«إنّ الصليبية الغربية الإنكليزية، والصهيونية الفاجرة اليهودية، تريد ذبحكم، كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا... تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلّوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويأخذوا القدس، ويستولوا على المدينة المنوَّرة، ويحرقوا قبر الرسول... إنهم يريدون اللعب بأمهاتكم وبناتكم وأخواتكم، وتحويلهنّ إلى خدم لهم وسبايا...

«يا ويلكم ألا تفهمون؟

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إذا دِيسَ شبرٌ من أرض المسلمين، فعلى المرأة أن تخرج بغير إذن زوجها، وعلى الرجل أنْ يخرج بغير إذن أبيه».

«أيّها المسلمون... ألا تفهمون؟.

«أيّها المؤمنون... فرض الله علينا الجهاد ليحمينا به... ليحمي أرضنا وعرضنا... قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة﴾.

«لقد ملأ اليهود بلادكم... لقد سرقوا أرضكم..».

وسكت الشيخ لحظة ثم قال:

ـ وعندما رفع اليهود (علم إسرائيل) على ظهر سفينة أسموها (تل أبيب) فقدتُ أعصابـي أو كدتُ، وخطبت خطبة نارية فعلاً، خرجتْ من قلبـي شُواظاً يتلظّى، خاطبتُ فيها المصلين الذين هم صفوة شعب فلسطين، قلت لهم:

«ما أنتم إلا شعبٌ من أرانب، تخافون الموت والشنق، وتشتغلون بالكلام الفارغ... ألا فاعرفوا أنَّ خلاصنا في أيدينا» إلى آخر تلك العبارات المشتعلة بنيران الأعصاب.

علّقت صادقة:

ـ إنِّي وأنا أسمع بعض كلمات خطبك، يا جدّي المجاهد، أحسُّ بحرِّ أنفاسك، أشمُّ رائحة الشِّواء في كلّ حرف، شِواء قلبٍ عَمَره حبُّ الله ورسولـه ثم حبُّ أمَّة الإسلام، ومقدّسات المسلمين، فهو يتلظّى بنيران ذلك الحبّ المقدَّس.

فقال الشيخ مستدركاً:

ـ وكلُّ بلاد المسلمين مقدّسة، عزيزة، غالية... كلّ بلاد المسلمين، وإن ذكرتُ أنا القدس والمدينة المنوّرة... دفعْنا ثمنها دماءً غالية، على أسوار دمشق، وتحت قلعة حلب، وفي اليرموك، وفي بغداد، وفي مؤتة والبلقاء وعمان والقدس وعمواس، وفي القادسيّة ونَهَوَنْد ومصر.

وقلتُ معقِّباً على كلام الشيخ:

ـ لقد أخذ اليهود القدس، وأحرقوا المسجد الأقصى، واحتلوا كامل التراب الفلسطيني، وارتكبوا المجازر في كلّ المدن والقرى الفلسطينية، وطردوا أهلها منها، فهام المساكين على وجوههم، وتوزَّعوا تحت كلّ نجم في أنحاء المعمورة، وهم يهدّدون اليوم كلَّ العواصم العربية والإسلامية.

فصرخ الشيخ:

ـ حَسبُك... حسبُك يا فتى، فقد أوجعتَ روحي، وعَصَرْتَ قلبـي.

فسكتُّ، وساد الصمتُ لحظات، ثم أرادتْ صادقة أن تخفّف من حدة التوتّر، فقالت في رقّة:

ـ هل تعود بنا يا جدّي الغالي، إلى ذكرياتك الجهادية في حيفا؟.

فزفر الشيخ زفرة حرَّى، ثم قال:

ـ ضاع كلُّ شيء، وصرنا (حكواتية) نجترُّ ذكرياتِ ماضٍ لا أقوى على وَصْفِه.

وقلت أنا:

ـ عفواً سيِّدي الشيخ، ذكرتم أنكم كنتم تخطبون خطباً حماسية، تهاجمون بها اليهود والإنكليز، وتحرِّضون المسلمين عليهم، وتدعون إلى الجهاد في سبيل الله، لتحرير فلسطين وسائر بلاد المسلمين من الظلم والاستعمار... فهل مرّ كلامكم هذا بسلام؟.

عادت الإشراقة إلى الوجه الصَّبوح وقال:

ـ كيف يمرّرون هذا يا ولدي دون مساءلة؟.

ـ هل استدعوك للتحقيق معك يا سيِّدي؟.

أجاب الشيخ؟:

ـ طبعاً استدعوني، وأكثر من مرة، وكنت أتخلّص منهم في كلّ مرة بفضل الله، ثم بالتفاف الشعب حولي.

ـ هل تذكر لنا شيئاً من هذا يا سيِّدي؟.

ـ كما تحبّ يا بنيّ.

في عام ١٩٢٩ علم أهالي حيفا أن اليهود يُعِدُّون العدَّة للهجوم على المسجد، فأسرع بعض الوجهاء يطلبون الحماية من سلطات الاحتلال البريطاني... وعندما علمتُ بهذا غضبتُ، وثارت حميَّتي لهذا الهوان.

ـ أيّ هوان تعني يا سيِّدي؟.

ـ أن نطلب من أعدائنا الإنكليز، حمايةَ مساجدنا من أعدائنا اليهود، فهذا الطلب ضعفٌ وذلٌّ وجبنٌ، والمسلم عزيز، يأبى الضَّيم، وهامتُه تناطح السحاب.

فصرخت:

«إنَّ جوامعنا يحميها المؤمنون منا. . .

إنّ دمنا هو الذي يحمي مساجدنا، لا دم الآخرين».

فصرختْ صادقة:

ــ الله أكبر. . . ما أعظم هذا الكلام يا جدّي!.

وتابع الشيخ يقول:

ــ لم يخلق الله هذه الدماء لتجري في العروق وحسب. . . إنَّ لها وظائف داخل الجسم، ولها وظائف أخرى لا تقلّ أهمية عن الأولى خارج الجسم.

صادقة: وجيش الاحتلال الإنكليزي واستخباراته يا جدّي؟.

الشيخ: هم لنا بالمرصاد. . . كانوا لنا بالمرصاد. . . عيونهم تراقبني، وآذانهم تلتقط كل همسة أهمس بها. . . استدعوني للتحقيق معي.

صادق: لا بد أنك أنكرتَ ما وجّهوه إليك من اتهام!.

الشيخ: خسئوا. . . أنا لم أنكر ما قلت، بل أصررت على أنّ طلب الحماية من الإنكليز هو الذلّ والجبنْ والضعف والهوان، وأننا قادرون على حماية مقدّساتنا.

صادق: وتركوك يا سيِّدي؟.

الشيخ: تركوني؟. . . قل: اعتقلوك. . . نعمْ اعتقلوني، خافوا من إثارة المسلمين، فوقعوا فيما كانوا يخشونه، فقد أضربتْ مدينة حيفا، وطالب أهلها الطيبون بالإفراج عني، فسارع الإنكليز إلى الإفراج عني.

صادق: ولكنهم وضعوك تحت المراقبة. . . أليس كذلك يا سيِّدي؟.

الشيخ: من أين عرفتَ يا بني؟.

صادق: من أساليب رجال المخابرات. . . هذه هي أساليبهم.

الشيخ: أجلْ. . . هذه هي أساليبهم، ولذلك بثُّوا جواسيسهم لمراقبتي

ومراقبة جامع الاستقلال... وجمعية الشبان المسلمين، وكان عملاؤهم في مديرية الأوقاف يُراقبونني من بعيد، ولا يجرؤون على مقابلتي أو مواجهتي، أو الظهور أمامي.

صادق: لا بد أنهم بهذه المتابعة وبتلك المراقبة، قد حدّوا من نشاطك يا سيِّدي.

الشيخ: لا... لم يحدّوا من حركتي ونشاطي.

صادق: كيف؟.

الشيخ: لأنني كنت أرفع شعار: حريّة الدعوة... علنية الدعوة... وسرّيّة التنظيم... كنت أعبّىء المسلمين في خطبي ودروسي، وأخفي تنظيم الأسر والخلايا التي كانت تُعِدُّ وتستعدّ... تشتري السلاح وتتدرب عليه... كان جواسيس الإنكليز ومستشاروهم من خونة العرب، يعتقدون أني شيخ متحمّس أو متهوّر، ولا تعدو كلماتي الآذان... شيخ يخطب، فتُسفي رياحُ البحر كلماته وتبعثرها، ولم يدروا أن رياح البحر كانت تحمل كلماتي إلى آذان الجبال، وقلوب الأودية... كان الفلاحون والعمال يعونها جيداً، كانوا يعرفون ماذا أريد.

صادقة: يا ويلهم من أغبياء، خسروا دنياهم وأخراهم.

الشيخ: ومع ذلك، كان بعض شياطينهم يخمّنون غير ذلك... كانوا يخشون من الثورة... وكتبوا تقاريرهم إلى الاستخبارات الإنكليزية، وإلى اليهود، فاستدعاني حاكم حيفا، وقال لي:

«اسمع يا شيخ... إنك متحركِ، وذو نشاط مناوىء لنا، ونحن لا نسكت عمّن يعادينا... إنني أحذّرك».

صادقة: الخبيث.

الشيخ: فرددتُ عليه بأن أخرجتُ المصحف من جيبيـي، ورفعتُه بيدي في وجه الحاكم الإنكليزي، وقلت له:

«اسمع أيّها الحاكم... إن هذا الكتاب العظيم يأمرنا بالجهاد، ونحن لا نخالفه».

فهتفنا أنا وصادقة لهذه الجرأة في الحق التي تعبّر أصدق تعبير عن عزّة المسلم وكرامته. ثم سألتُ الشيخ المجاهد:

ـ هل حدَّ هذا من نشاطك يا سيِّدي؟.

أجاب الشيخ بحزم:

ـ لا... لم يحدّ من نشاطي، لأنني كنت أحسب لكل خطوة أخطوها في الدعوة إلى الجهاد ومناجزة الإنكليز واليهود، وعدم التعاون معهم، بل كنت أدعو إلى قطع كلِّ الصلات بهم، إلا صلةً تعود على الحركة الجهادية بمعلومة جديدة عن الإنكليز واليهود.

تساءلت صادقة عما إذا كانت دعوة الشيخ محصورة في حيفا وقراها، ولم تتجاوزها إلى المناطق الأخرى، فأجاب الشيخ عز الدين:

ـ كنتُ أعمل وأجهّز للثورة في كلّ فلسطين، وإلا... فمن غير المعقول أن تنجح الثورة في منطقة واحدة كمنطقة حيفا، وتبقى سائر المناطق الأخرى مستعمرة خانعة ذليلة...

ـ كيف كان هذا يا سيِّدي؟.

ـ كنتُ أرسل إخواني وتلاميذي ليتّصلوا بالناس والعلماء في المدن والقرى الفلسطينية، وكان هؤلاء الأحباب المجاهدون يبشّرون الناس وينذرونهم، ويحمّسونهم، وينظّمون من يتوسّمون الخير فيه، من شجاعة وكرم وحبٍّ لله والوطن، والتضحية والبذل في سبيل الله.

وسألتْ صادقة:

ـ والمفتي يا جدّي؟.

أجاب الشيخ:

ـ المفتي، يا صادقة، كان مجاهداً عظيماً، ومسلماً قويَّ الإيمان بالله، وذكيّاً، فيه من الدهاء ما يكافىء دهاء أعدائه من الإنكليز واليهود وأتباعهم... كان الحاج أمين شديد الإخلاص لله، عاملاً على تحرير البلاد من الأغراب بكلّ الوسائل المتاحة، كانت علاقتي به جيدة، كنا نتعاون لتحقيق هدف كلِّ مسلم واعٍ على وجه الأرض، وهو تحرير فلسطين وسائر بلاد المسلمين... كنّا متفاهمين على توزُّع الأدوار الجهادية، نعمل على محاور مختلفة، وكلُّ أعمالنا تصبُّ في خانة المصلحة العامة، مصلحة العروبة والإسلام.

قالت صادقة:

ـ قرأت في بعض الصحف، أنكما كنتما مختلفين في الطريقة التي تحرر فلسطين يا جدّي.

ـ لا يا صادقة... كلّ ما هنالك، أنني كنت أطلعه على ما أفكّر به، وأنوي القيام به وأنّ الكفاح المسلّح هو الطريق للخلاص، وأن حمل السلاح هو الحلّ، وكان المفتي معي في تصوري هذا، ولكنه كان يعتقد أنَّ الوقت لم يحن ـ بعدُ ـ لحمل السلاح في وجه الإنكليز واليهود.

ـ عجيب!.

ـ لا عجب يا صادق... فكلُّ الأحزاب السياسية في فلسطين وفي بلاد العرب كانوا يرون هذا... كانوا ينتظرون أن تتراجع بريطانيا عن وعد بلفور، من خلال المفاوضات، ولا حاجة لحمل السلاح.

فاستدركتُ على الشيخ قائلاً:

ـ إلا جماعة الإخوان المسلمين يا سيِّدي، فإنها ما كانت تثق بالدول الاستعمارية، وخاصة الإنكليز، والإخوان يرون الكفاح المسلّح هو وحده الذي يحرّر فلسطين.

وابتسم الشيخ وقال:

ـ هذا صحيح، وقد أرسل إليّ الأستاذ البنا وفداً لمحاورتي ومؤازرتي، وكان أخوه الشيخ عبد الرحمن البنا على رأس الوفد، واتفقنا على الكفاح المسلّح، وأرسل إلينا مجموعة من المدرِّبين ليدرِّبوا رجالنا هنا.

ـ لهذا نحن نرى الإنكليز والأمريكان واليهود يعادون الإخوان، ويراقبونهم، ويترصّدونهم، ويحاولون الإيقاع بهم، ويتهمونهم بالإرهاب والتعصّب والتطرُّف.

وقالت صادقة:

ـ إذن، كان الخلاف بينكما في الطريقة والأسلوب يا جدّي.

قال الشيخ:

ـ المفتي كان مؤمناً بالعمل المسلَّح، ولكنه كان سياسيّاً أيضاً، ولذلك كان يقدّم لنا المساعدات في السرّ، وكانت المسألة عنده مسألة الوقت المناسب للثورة.

ـ يعني... ما كان المفتي يرغب في التهور.

فابتسم الشيخ وقال:

ـ سامحك الله يا ولدي... فأنا ما كنت متهوراً ولا متسرِّعاً، وكنت أبني بعقل وهدوء وكتمان، وكنت أهيّىء للثورة الشاملة، ولهذا رفضتُ الاشتراك في ثورة البراق عام ١٩٢٩ لأن الشعب لم يكن قد تهيّأ للثورة... لم يكن بيده السلاح، ولم يكن مدرَّباً، وكنت أدرّب الناس سرّاً، وأحرّضهم على شراء السلاح، فيما كانت الأحزاب تسعى إلى استرضاء المستعمر، وعدم إثارة غضبه.

وسألتْ صادقة:

ـ هل استفادت الأحزاب من موقفها هذا يا جدّي؟.

أجاب الشيخ:

ـ أبداً... لم يهتمَّ المستعمرون بهم، بل كانوا يحتقرونهم، وما استفادوا

شيئاً من مجاملة الإنكليز الذين يتقنون المناورة، والضحك على المغفَّلين منَّا نحن المسلمين.

ـ كيف؟.

ـ هل تذكر لنا ما يوضّح هذا يا جدّي؟.

قال الشيخ:

ـ لا بأس... لا بأس...

وصار الشيخ يتذكر وهويعبث بعُثْنونه ثم قال:

ـ قابل وفدٌ من الأحزاب المندوب السامي الإنكليزي، واحتجّوا على سياسة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فأجابهم في احتقار:

«إنَّ الهجرة تجري وَفْقاً لسياسة استيعاب البلاد، وفلسطين تستوعب عدداً أكبر من ذلك».

ـ وانتهت المقابلة؟.

أجاب الشيخ في ألم:

ـ وانتهت المقابلة.

وسألت صادقة:

ـ ألم تغيّر الأحزاب موقفها وأسلوبها بعد هذا الردّ القاسي يا جدّي؟.

أجاب الشيخ:

ـ شعروا بخطئهم، ويئسوا من الإنكليز، فلا الوزارة الإنكليزية استجابت لقادة الرأي والساسة العرب الذين سافروا إليها في لندن، ولا القادة المدنيون والعسكريون المحتلّون يستجيبون لمطالب الأحزاب الفلسطينية، ومع ذلك، لم ير رجال تلك الأحزاب ضرورة لحمل السلاح، واكتَفَوْا بالمظاهرات الصاخبة التي عمّت المدنَ الفلسطينية، ظنّوا أنَّهم بهذه المظاهرات يستطيعون الضغط على

الإنكليز، مع أنَّ جواب الإنكليز واضح في سلوكهم قبل ألسنتهم.

ـ ولم تردّ قوات الاحتلال على تلك المظاهرات يا جدّي؟.

أجاب الشيخ وهو يصعّد الحسرات:

ـ حرّية التعبير عن الرأي، والضغط على الحكومة بوساطة المظاهرات، واحترام الرأي الآخر، وما يسمّونه ديموقراطية... كلُّ هذا في بلادهم، أما في بلاد العرب والمسلمين، فالديموقراطية تعني التصدّي للمتظاهرين، وقتلهم، وسجنهم، والتنكيل بهم، ومطاردتهم، وتشكيل محاكم استثنائية عسكرية ميدانيّة لهم، تحكم على من تشاء في لحظات... تحكم بالموت شنقاً، ورمياً بالرصاص، وغير ذلك من الوسائل (الحضاريّة) الأوروبيّة.

ـ هل تصدّى الإنكليز لتلك المظاهرات يا سيِّدي؟.

ـ طبعاً يا صادقة... قتلوا في القدس وحدها ثلاثين متظاهراً، وجرحوا المئات، وقتلوا من الذين تظاهروا في يافا اثنين وثلاثين شهيداً، وجرحوا مئة وسبعة وستين، وكان من بين الجرحى الزعيم الوطني الشيخ موسى الكاظم الحسيني، الرجل الذي كان في العقد الثامن من العمر.

قلت للشيخ المجاهد:

ـ معنى هذا أنَّ الشعب الفلسطينيّ لم يذعن ويستسلم للأمر الواقع، وقاتل دفاعاً عن دينه وبلاده يا سيِّدي.

فتابع الشيخ يقول:

ـ وقدَّم تضحيات غالية... قدَّم شهداء وجهوداً وأموالاً، ولم يبخل على قضيّته إلا بعضُ السِّفْلة الذين أخلدوا إلى الأرض، واستناموا للشهوات، فباعوا أرضهم، وتعاملوا مع اليهود ومع الإنكليز ضدّ أوطانهم، وضدّ أبناء دينهم وقومهم... أما سواد الشعب... أما العلماء والعمال والفلاحون والبسطاء والفقراء، فقد ضَحَّوْا بأغلى ما يملكه الإنسان... ضحَّوا بأرواحهم، وسالت

دماؤهم الطاهرة في الساحات والأحياء والأودية والجبال، ولم يفرّطوا بأرض أو بيت أو دكان، مهما دفع اليهود من أثمان.

ــ هل أفادت تلك المظاهرات في الحدّ من الهجرات اليهودية يا جدّي؟.

ــ بل ازدادات الهجرات اليهودية، وبتشجيع من الإنكليز الذين خانوا عهودهم التي عاهدوا عليها العرب قبل ثورة الشريف حسين، وحافظوا وعملوا على تنفيذ الوعد المشؤوم الذي قطعه وزير خارجيتهم بلفور على حكومته، في إيجاد وطن قوميّ لليهود على أرض فلسطين.

وسألتُ الشيخ عن أولئك اليهود المهاجرين إلى فلسطين: هل هم من العجائز الطاعنين في السنّ، ومن المتدينين التوراتيين فأجاب:

ــ بل أكثرهم من الشبان القادرين على القتال، والمدرّبين عليه... وقد أقامت لهم سلطات الاحتلال الإنكليزي مدرسة سرّية، لتدريبهم على استعمال أنواع السلاح، وعلى القتال القريب، وعلى قتال الشوارع، وعلى قتال العصابات.

ــ يعني... كان الإنكليز يُعِدُّونهم إعداداً قتالياً.

فنفخ الشيخ وقال:

ــ ماذا أحدِّثكم عن الإنكليز؟ بكلمة واحدة: لولا الإنكليز ما قامت لليهود دولة، ولا كان لهم هجرة، ولكنَّ الإنكليز مكّنوا لهم في فلسطين، ومكّنوهم من رقاب الشعب ومن أرضه... ساعدوهم في بناء مستعمراتهم، وجعلوا من تلك المستعمرات ثكنات عسكرية، ملؤوا مخازنها بالأسلحة والذخائر، وخبَّؤوها لساعة الصفر كما يقولون، والعرب والمسلمون يغطّون في دياجير الجهل والعجز والتخلّف.

صادقة: ألم تنبّههم يا جدي إلى ضرورة السلاح، وإلى الأخطار المحدقة بفلسطين؟

الشيخ: أنبّه من يا صادقة؟.

أنبّه الحكّام أم أنبّه الشعب الفقير العاجز؟.

كنتُ ألحُّ على اقتناء السلاح، وألحُّ على ضرورة التدريب للقتال، وقد سألني أحد المصلّين وأنا على المنبر:

«بماذا نقاوم العدوَّ ونحن لا نملك شيئاً؟».

فقلت له بأعلى صوتي وعلى رؤوس الأشهاد:

«بقتلهم وأخذ السلاح منهم».

كنت أقول لهم:

«الجهاد رفيق الحرمان»

«المجاهد رائد والرائد لا يكذب أهله».

وكنت أصرخ بأعلى صوتي:

«أيّها الرجال... أيتها النساء... يا شباب فلسطين... البلاد في خطر».

كنتُ وإخواني نطوف في القرى، وندعو الفلاحين إلى التشبّث بأرضهم، وعدم بيعها لليهود، كما كنا ندعوهم إلى محاربة السماسرة المتعاملين مع اليهود.

بل بلغ بـي الأمر يوماً وأنا أعلّم الرجال الأميين، أن أخرجتُ من عُبّـي مسدساً وقلت لهم: تعلموا هذا، قبل أن تتعلموا هذا... أرأيتم؟ دعوتهم إلى تعلُّم السلاح والقتال، قبل تعلُّم القراءة والكتابة، لأنني رأيت الخطر يقترب، والعدوّ ساهراً، وقد أحيط بأهل البلاد الذين فقدوا النصير من الأشقّاء والجيران.

صادق: أريد أن تحدّثنا، يا سيِّدي، عن بعض النماذج المجاهدة من تلاميذكم.

الشيخ: هل أحدّثكم عن العناصر الكادحة التي انضمّت إلينا؟.

هل أحدِّثكم عن أبـي درّة بيّاع الكاز على الطنبر؟.

هل أحدِّثكم عن أبـي خليل الفحّام، أم عن الغلاييني الذي كان يلحم التنك، ثم صار مخترعاً عندما صنع لنا القنابل؟.

لو رأيتم بيوت هؤلاء المجاهدين... إنها في أطراف المدينة، وهي عبارة عن أخصاص من التنك الممزَّق الذي أكله الصدأ، وهي غارقة في الأزقة والباحات الموحلة.

صادقة: أراك، يا جدّي، تُبدىء وتُعيد في ذكر الفلاحين والكادحين والفقراء.

الشيخ (مقاطعاً): هذا لأن شباب عصرنا ابتعدوا عن النهج القويم، وأمعنوا في الضلال، فلم يبق على هذه الأمة إلا أن تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وإيمان وبُعد عن بهارج المدنيّة الزائفة، وعن العلوم والآداب التي تُقْصِي الإنسان عن الفطرة المستحبّة... إنني يا ابنتي شديد الثقة بهؤلاء العمال والفلاحين الواثقين بالله، المؤمنين باليوم الآخر، المتطلّعين إلى الجنة، ومن كانت هذه صفاته، كان أقرب الناس إلى التضحية، وأجرأهم على الإقدام، ثم إنهم أقوى بنيةً، وأكثر احتمالاً للمشاقّ والمتاعب.

فنظرتْ إليّ صادقة نظرة فهمتُ معناها، فيما تابع الشيخ يقول:

ـ اسمعوا قصة السمكريّ المجاهد أحمد الغلاييني.

هـذا الشاب الفقير التحق بنا، وكان ذكيّاً وصادقاً... رآنا مهتمّين في جمع التبرعات والاشتراكات لشراء ما نستطيع من أسلحـة وذخائر، وفكّر فيما يجب عليه أن يقدِّمه لنا، وقد هداه تفكيره إلى صنع عدة قنـابل في محله المتواضع، وقامت خليّته بوضع واحدة منها في مقر حراس مستعمـرة يهودية، وعندما انفجرت قتلت اثنين مـن اليهود، ثم قـامت الخلية بتسيير قطيـع من الغنم على طريق المستعمرة لإضاعة الأثر، وتضليل العدوّ.

صادقة: رائع... رائع...

صادق: هل تذكر لنا، يا سيِّدي، بعض أعمالكم المسلَّحة، وماذا كنتم تستهدفون؟.

الشيخ: كنَّا نغير على الثكنات الإنكليزية، ونكسب منها بعض السلاح والعتاد، أو نقوم بتخريب ما نستطيع تخريبه فيها.

وكنَّا نهاجم المستعمرات اليهودية، وندمّر ما تصل إليه أيدينا مما يجب تدميره. وكنا نلاحق الخونة المأجورين الخارجين عن إرادة الأمة، في التعاون مع الإنكليز واليهود، كالتجسُّس لحسابهم، أو شراء الأراضي لليهود.

وكنَّا نتصدّى لدوريّات الجيش والدرك البريطانيَّيْن.

وكنّا نقطع المواصلات والاتصالات، ونهاجم حرس المستعمرات، ونزرع القنابل المتفجرة والألغام فيها.

صادق: كم سنةً أمضيتَ في حيفا يا سيِّدي؟.

الشيخ: خمس عشرة سنة.

صادقة: خمس عشرة سنة في فلسطين، وأربع عشرة سنة في مصر، هذا يعني أنك عشتَ في سورية أربعاً وعشرين سنة... ما شاء الله... ما قضيتَه خارج بلدك، أكثرُ من السنوات التي عشتَ فيها في بلدك.

الشيخ: كلُّ بلد يُذْكر فيه اسم الله بلدي... بلاد العرب والمسلمين بلادي، ولذا لم أكن أشعر بالغربة وأنا في مصر وفلسطين.

صادقة: هل تحدّثنا يا جدّي عن تنظيمك؟.

الشيخ: تنظيمي الجهاديّ كسائر التنظيمات التي تحترم نفسها، كان يتكوّن من:

ـ وحدة مختصة بشراء السلاح، وثانية لجمع المعلومات عن العدوّ ومراقبة تحركاته، وثالثة للتدريب العسكري، ورابعة للدعاية في المساجد والمحلات

العامة، وأبرز أعمالها: الدعوة إلى الجهاد، وترغيب المسلمين فيه، وكان الشيخ المجاهد الأعجوبة كامل القصاب هو المستشار وهو الموجِّه لها، والوحدة الخامسة مختصة بالعمل الجماهيري والاتصالات السياسية، والسادسة لجمع المال من الأعضاء والأنصار، ولرعاية أسر المعتقلين والملاحقين والشهداء.

صادقة: هل كان للمرأة دور في حركتكم يا جدّي؟.

الشيخ: نعم يا صادقة، خاصة في مجال رعاية الأسر، وجمع المساعدات، وتقديمها لتلك الأسر، ومواساتها.

صادقة: لدينا تساؤلات كثيرة يا جدّي الكريم، لكنَّنا أتعبناك، ولهذا نريد أن تحدّثنا عن إعلانك الثورة، وفوزك بالشهادة إن سمحت.

الشيخ: عندما عرفتُ أنّ وضعنا قد انكشف، بفعل الجواسيس الذين بثَّهم الإنكليز واليهود في كلّ مكان، وفهموا شيئاً عن تنظيمنا المسلح، وعن بعض عمليّاتنا وما نخطّط له، اجتمعتْ قيادة التنظيم، وقررنا الخروج إلى الجبال، والاتصال بأهل المزارع والقرى، ودعوتهم إلى الجهاد، وتدريب المتطوّعين منهم، ومطالبة الفلاحين بالدفاع عن أرضهم، مهما كلّفهم ذلك من ثمن، وقبل أن أغادر حيفا، خطبتُ في مسجدي جامع الاستقلال، خطبة حماسية، دعوتُهم فيها إلى الجهاد بالنفس والمال، وإلى حمل السلاح، وأعلنتُ فيها استقالتي من وظائفي، ومنها خطبة الجمعة، وقلت لهم: «لن أعود إلى هذا المسجد إلا منتصراً أو شهيداً ليُصَلَّى عليَّ. . . » ثم صلَّيتُ بالناس، وقرأت في صلاتي سورة القتال، فكانت الصلاة مؤيّدة لما جاء في الخطبة، ثم غادرتُ المسجد إلى جبل جنين، ووزّعت القوة التي كانت معي، وكنَّا نتأهَّب للطواف على القرى، ولكن. . . شاء الله أن يكشف العدو مكاننا بوساطة جواسيسهم الذين أشاعوا أنَّ هناك عصابة قتلة ولصوص تقتل وتسرق وتأوي إلى المغاور، فحشد العدوُّ أكثر من مئة وخمسين عسكرياً، وجعلوا الشرطة العرب في ثلاثة صفوف أمامية، ثم تقدّموا لمحاصرتنا.

صادقة: هل كنتم ترونهم يا جدّي؟.

الشيخ: كان الحصار مع طلوع الفجر، وكان بإمكاننا أن نهرب، ولكنني أبيتُ ذلك، . فيا مرحباً بلقاء الله.

طوَّقنا العدوُّ من ثلاث جهات، وكانوا في الجبل، وكنَّا في السفح والوادي في حرش (يَعْبَد)... كنَّا أحد عشر مجاهداً وكانوا أكثر من مئة وخمسين، وحين تقدموا نحونا، وعرفنا أن الشرطة العرب في مقدّمة الصفوف الزاحفة، . صحتُ في إخواني: «لا تقتلوا أبناءنا» فكان الشرطة العرب يصوِّبون أسلحتهم نحونا، ويطلقون نيرانهم علينا، وهم لا يعرفون عنا سوى أننا عصابة من اللصوص، ولو عرفوا من نحن، لتغيّر موقفهم والله أعلم.

سكت المجاهد لحظة أدار عينيه في وجهينا ثم قال:

ــ كانت المعركة غير متكافئة، في العَدَد وفي العُدَد، وفي المكان وفي التوقيت، وفي الأخلاقيّة التي سلكها الإنكليز، بوضعهم الشرطة العرب أمامهم، ليتترّسوا بهم، وليقتل العربـيُّ أخاه العربـيّ، ولكنَّنا قاتلنا وصمَّمنا على القتال حتى النهاية، حسب الشعار الذي طالما ردّدناه:

« هذا جهاد... نصر أو استشهاد».

طلب منا قائد الحملة أن أستسلم وأنجو ومن معي بأرواحنا، ولكنني رفضت طلبه، وصحتُ في إخواني: «موتوا شهداء» وحميت المعركة، واستمرت بضع ساعات، الواحد منا يقاتل أكثر من عشرين عسكرّياً مدرَّباً مدجّجاً بأحدث الأسلحة، ثم صَعِدت روحي إلى السماوات العُلى، وفُزت بالشهادة في سبيل الله.

وتابعتُ أقول معقِّباً على كلام الشيخ الشهيد:

ــ وفزتَ بوصف القائد القدوة، وصرتَ أسوةً للأجيال، تسير على خطاك، بعد أن عَرَفْت أن طريقك هو الطريق.

وقالت صادقة:

ـ واستشهد معك رفيقُ دربك المخلص الشيخ محمد الحنفي، والشيخ يوسف الزيباوي، والشيخ عطيفة المصري، وأحمد الحسّان، وتعانقت أرواحكم في سماء اليوم العشرين من تشرين الثاني عام ألف وتسع مئة وخمسة وثلاثين، وجُرح إخوانك الآخرون، وحاولتْ سلطاتُ الاحتلال عدم تسليم جثّتك، ولكنَّ أهل حيفا الأشاوس أجبروهم على تسليمها، لتكون لك جنازة حافلة، وليأخذ الناس الدروس والعِبَر من مسيرتك الجهادية، ثم وارَوْا جُثْمانك الطاهر، يا جدّي الشهيد، في مقبرة حيفا في الياجور، قرب بلدة الشيخ، وكتب شاعرهم على شاهدة القبر هذه الأبيات:

هـذا الشهيـد العـالـم المفضـال ... قـد كـان فـي الإرشـاد خيـر أميـن

هـو شيخنـا القسّـام أول رافـع ... علـم الجهـاد بنـا لنصـر الـديـن

كـانـت شهـادتـه بـوقعـة (يَعْبَـدٍ) ... فـي شهـر شعبـانٍ بحسـن يقيـن

ولئـن تصـفْ مثـواه فـي التـاريـخ قـل: ... فـي أشـرف الفـردوس عـزُّ الـديـن

سكتت صادقة هنيهة ثم تابعت تقول:

ـ ورثاك شعراء الوطن والأمة، وتحدث الخطباء، وكتب الكاتبون في مناقبك وشخصيّتك وثورتك، وقد استوقفني منها، برقية التعزية التي عزّى بها الملك (إدوارد) أسرتك الكريمة، وتمنى لو أنك لم تُقْتَل، لأن الإنكليز كانوا يرغبون في أخذ عينة من دماغك الهائل، ليعرفوا أيَّ دماغ كنتَ تحمل يا جدّي، وقد سألتْ عصبة الأمم، المندوب السامي البريطانيَّ عن سبب الاضطرابات والثورة في فلسطين، فكتب يقول عنك:

«رجلٌ كهل، إذا خطب صهر الأدمغة».

وأبرق السجناء:

«إذا مات القسام، فكلٌّ واحد منّا القسّام».

وعندما شاهدتُ صادقة تسكت، ذكَّرتُها بكلام كانت تقوله في مسجد السلطان بن أدهم في جبلة، فقالت:

ـ صدقتَ يا أخي، وبارك الله فيك.

ثم التفتَتْ إلى الشيخ عزّ الدين القسّام وقالت:

ـ كتب الزعيم السياسي جمال الحسيني ينتقد موقف السياسيين من أمثاله فقال:

«ثورة القسام كانت ثورة علينا جميعاً، شبّاناً وشيوخاً وكهولاً، إذ يقول كلُّ واحد منّا: في قلبي إيمان، وفي نفسي إخلاص وعزيمة، ولكنّي مُثْقَل، وورائي عائلة كبيرة، أخاف إن خرجتُ أن يتخطّفهم الذلُّ والعار والموت، وليس لديّ ما يدفع عنهم عوادي الزمن...

«يسمع القسَّام وصحبُه هذا فيثورون عليه ويخرجون... يخرجون عمَّن؟ يخرجون عن أعشاش فيها قطعٌ من اللحم كأفراخ العصافير، ينتظر كلُّ واحد منها معيله، ليسقط في منقاره ما يسدُّ به جوعه، ويروي عطشه، فيندفع القسام وصحبُه من تلك الأعشاش، لتثبيت المبدأ، وإحقاق الحقّ، وإعلاء شأن الإيمان، ونحن إذ نرى ذلك منهم، لا يسعنا إلا أن نشعر بتبكيت الضمير، واحمرار الوجوه، فندعو الله أن ينير قلوبنا بهذا الإيمان».

وقلت أنا:

ـ وكان استشهادك، يا سيِّدي الشيخ القائد المجاهد، بداية الثورة الواعية المؤمنة، حملها تلاميذك، فاستشهد منهم من استشهد، ومن عاش كانت ذكرياته عنك، وقوداً للثورة المؤمنة التي انطلقت من المساجد، وهي تهتف باسمك، وترفع شعارك الرائع:

«هذا جهاد... نصر أو استشهاد».

● ● ●

المصادر والمراجع

١ ـ الشيخ عز الدين القسام: قائد حركة وشهيد قضيّة: حسني جرار.

٢ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية: شوقي أبو خليل.

٣ ـ الدعاة والدعوة الإسلامية: د. محمد حسن الحمصي.

٤ ـ القسام (رواية): عبد الله الطنطاوي.

٥ ـ تاريخ علماء دمشق: أباظة والحافظ.

٦ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي.

٧ ـ ثورة الشهيد عز الدين القسام: عوني العبيدي.

٨ ـ ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني: زهير مارديني.

٩ ـ الحاج محمد أمين الحسيني: حسني جرار.

١٠ـ جريدة الدستور الأردنية في ٢٨/٩/١٩٩٤ ـ مقابلة مع السيدة ميمنة بنت الشيخ عز الدين القسام.

● ● ●